الباب الثاني

الإخـــــلاص

﴿فاعبد الله مخلصا له الدين﴾
قرآن كريـــم

تمهيد: أهمية الغاية وعظيم خطرها.
الفصل الأول: الغاية التي تتوجه إليها مقاصد المكلفين.
الفصل الثاني: مفهومات خاطئة للإخلاص.
الفصل الثالث: المقاصد السيئة.
الفصل الرابع: تأثير القصد في الأفعال.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيـــــد

أهمية الغاية وعظيم خطرها

الأفعال الإرادية التي يقوم الإنسان بها لا بدَّ لها من محركات تدعو الإنسان إلى فعلها وتحقيقها، وهذه المحركات قد تكون نابعة من حاجة الإنسان إلى أمور معيّنة كالطعام والشراب والنكاح، وقد تكون أهدافا حسّنت وزيّنت له بحيث صارت تلحّ عليه، وتستدعيه إلى تحقيقها لما قام في نفسه من أنَّ الخير في السعي إليها وإيجادها.

وهذه المحرّكات من حيث هي بواعث وتصورات تطلب مرادها- يطلق عليها دواعي وبواعث، ومن حيث إنها شيء خارجي يسعى الإنسان إلى تحقيقه ونيله تصبح هدفا وغاية. ومن العلماء من يقصد بالدواعي مجموع المحرّك القائم بنفس الإنسان والهدف الذي يسعى إلى إيجاده، ونحن سنطلق عليها في الأغلب الغاية، لأنَّنا ننظر إليها من هذا الجانب أكثر مما ننظر إليها من الجانب الآخر، وإن كان بينهما اتصال وثيق ورابطة لا تنفصم.

والغاية التي يتصورها الإنسان ذات تأثير كبير عليه، فالّذين يبذلون أنفسهم في ميادين الحرب والقتال عن رضا وطواعية حريصين على الشهادة ما فعلوا ذلك إلاّ لأنَّهم يطلبون بالاستشهاد خيرا عظيما.

وقد عُني الحكّام والساسة والقادة والمربُّون والاقتصاديون... وغيرهم بدراسة الدوافع والغايات عناية كبيرة، وأفرد «علم النفس الاجتماعي» لهذا الجانب مباحث واسعة، وما ذلك إلاّ لأهميّتها وعظيم فائدتها.

ونحن ندرك بدون عناء كبير بما نلاحظه في أنفسنا وفي نفوس الآخرين من حولنا أنَّ الأهداف التي نرسمها في تصوراتنا تنتصب أمامنا بحيث تشدّنا إليها شدّا، ولا تزال تشغل عقولنا، وتتراءى لنا مهما شغلنا عنها في غمرات الحياة، ولا نستريح ولا نهدأ حتى ندركها، وإلاَّ بقيت حسرة في قلوبنا، وألما ممضّاً في نفوسنا.

ولذلك عني الباحثون على اختلاف مشاربهم بهذا الجانب، كي يعرفوا السبيل الذي يوجه به سلوك الإنسان نحو ما يريدون تحقيقه وإيجاده، فعلماء التربية يريدون من وراء هذا أن يندفع الناشئة اندفاعا ذاتيا إلى تحقيق الأهداف التي يرسمونها، ويحددونها.

ورجال الاقتصاد يريدون أن يصل الانتاج إلى قمته، ولا يتحقق ذلك إلاّ إذا انبعث العمال إلى العمل عن رضا وطواعية معتقدين أنَّ هذا العمل يحقق لهم خيرا وصلاحا... وهكذا.

والإسلام جاء لإصلاح النفس الإنسانية، ومنزِّله هو العليم بهذه النفس، ولذلك لم يرغم الإنسان على اعتناقه والعمل بموجبه، لأنَّ الإكراه مخالف لفطرة الإنسان، ومخالف للحكمة التي أوجد الإنسان من أجلها، ولذلك كان السبيل الذي سلكه الإسلام هو توضيح الغاية التي ينبغي أن يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وبيان الأسباب التي تدعو إلى ذلك، والنتائج الخيرة التي ينالها الإنسان من وراء هذا، وتوضيح العواقب السيئة والآثار البالغة الخطورة المترتبة على التوجه إلى غير الغاية التي رسمها، وعندما نطالع النصوص الإسلامية في القرآن والحديث ندرك مدى العناية بإيضاح الغاية وتجليتها والكشف عن أبعادها.

ويكفينا في هذا أن نعلم أنَّ الغاية التي يرجوها المسلم من وراء أفعاله هي المعيار الذي يقوّم به عمله، فالأعمال تصبح ذات قيمة أو تفقد قيمتها باعتبار الغاية التي يرمي إليها العامل من عمله، فالذي يصلي ابتغاء مرضاة الله عمله أفضل

الأعمال، والذي يصلي لينال شرفا ومكانة عند الناس عمله شرّ الأعمال، والذي يهاجر استجابة لأمر الله ونصرة لدين الله عمله في المرتبة العليا، والذي يهاجر طلبا لنفع دنيوي: مال يحوزه، او امرأة يتزوجها، عمله باطل مضمحل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً..﴾[1].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىء مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[2].

ومعرفة الغاية الحقيقيّة التي تستثير النفس الإنسانيّة هو مفتاح النفوس، فالنفس الإنسانية كانت ولا تزال سرّا عجيبا ولغزا معقّدا، أتعب العقول وحيّر الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور. ولقد قام العلماء بجهود مضنية كي يصلوا إلى كنه النفس الإنسانية، ويسبروا أغوارها، ولقد ارتدّت بحوث العلماء في كثير من الأحيان إلى ترّهات وتفاهات، لأنّهم راموا التوصل إلى شيء لم يعط الإنسان القدرة على الإحاطة به[3]، فروح الإنسان وسر الحياة من مكنونات علم الله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. لقد قرّر كثير من الباحثين في العصر الحديث أنّ النفس الإنسانيّة لا وجود لها، والإنسان ليس إلاّ آلة تستجيب لما حولها من مثيرات ومنبهات، ولا تحركها أيّ دوافع داخلية، ويرى كثير من الباحثين أنّ ما كان يسمّى بالغريزة والدوافع الفطرية يمكن إرجاعه بالتحليل إلى سلسلة من الأفعال المنعكسة[4].

---

(١) سورة الإسراء (١٨ ، ١٩).

(٢) انظر تخريجه في ملحق الكتاب.

(٣) يقول (لوسين) عالم الطباع الفرنسي: «إنّ معرفة الإنسان كانت تكتسب الصفة العلمية على قدر هبوطها إلى قطاعات من الحياة الإنسانية، وإنها تفقد هذه الصفة العلمية على قدر صعودها ونفاذها إلى الصميم المعقد، وإلى الأصالة من النفس الإنسانية «علم الطباع ص٢٧».

(٤) سلوك الإنسان (ص١٢٦).

فالعلماء الماديّون ينظرون إلى الإنسان نظرة مادية صرفة، فهم لا يعترفون بأنَّ في الإنسان نفحة علوية، ولقد صوّر (فرويد)[1] الإنسان بأنّه مجموعة من الشهوات لا ترتفع عن الواقع المادي، ولا ينطلق من إسارها، فالإنسان عند هؤلاء مخلوق مشدود إلى هذه الأرض، هي عالمه الذي يعيش فيه ويسعى إليه، وهي منتهى آماله، وغاية مطلوبه.

لقد ضلّ الإنسان وهو يبحث عن أقرب الأشياء إليه: نفسه، لقد أضاع نفسه، وهو يبحث عن نفسه. فريق أنكر حقيقة الإنسان عندما أنكر الروح التي تسري في كيانه، وفريق لم يستطع أن يتعرف على الروح معرفة حقّة، وإن آمن بوجودها، ونتج عن ذلك أنَّ الغاية التي يجب أن يسعى إلى تحقيقها وإيجادها بقيت مجهولة، وأن المنهج الذي يجب أن ننهجه بقي غائبا، وبذلك بقي الإنسان يعيش في متاهات، ويمضي في الحياة وهو لا يدري.

والموقف الحقّ لا يتمثل في أن نمضي في بحوثنا الرامية إلى معرفة حقيقة النفس الإنسانية، فذلك سبيل ثبت فشله، وأعلمنا الله بأنَّ نيله لا يستطاع، وإنّما السبيل أن نتعرف على الغاية المثلى التي متى رسمت للنفس الإنسانية تفاعلت معها، وعملت فيها خيرا، ووجهتها الوجهة التي تتحقق بها سعادتها وهناؤها، وهذا هو الذي جاءَنا به القرآن الكريم. وقد حلّ الإسلام بذلك اللغز الذي قضى الإنسان عمره وهو يبحث عنه، حلّه الإسلام بأيسر سبيل، فالإنسان يطيق أن يتمثل الغاية ويسعى إلى تحقيقها، فيجد نفسه، ويحقق دوره، ويمضي إلى مطلوبه، وبذلك ترتفع عن كاهله الأعباء الجسام التي تراكمت بفعل الضلال الذي لفّ البشرية بسبب الجهل الكبير على مدى قرون متطاولة، وهذا ما سنحاول بيانه إن شاء الله تعالى في هذا الباب.

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام (ص٣١).

لا غنى للبشرية عن الغاية التي يرسمها الإسلام

لا خلاف بين الناس في أنّ المطلوب الذي يرمون إلى تحقيقه وايجاده هو السعادة، فمن أجل السعادة ينطلق الناس في مساعيهم وأعمالهم يوماً وراء يوم، وشهرا في إثر شهر، وعاما بعد عام، وقد أقرّ بهذه الحقيقة أهل الفكر والمعرفة، وعلماء الاجتماع والنفس، يقول ابن حزم في هذا: «تطلبت غرضا يستوى النّاس كلّهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلّا واحدا، وهو طرد الهمّ، فلما تدبرته علمت أنَّ النّاس كلَّهم لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه، ولكن رأيت النّاس على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم ومراداتهم لا يتحركون حركة أصلا إلّا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم، فمن مخطىء وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب، وهو الأقلّ من النّاس في الأقلّ من أموره.

فطرد الهمّ مذهب قد اتفقت الأمم كلُّها منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء، ويعاقبه عالم الحساب على الّا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه، وكلُّ غرض سواه ففي النّاس من لا يستحسنه»[1].

وهذا الذي أسماه ابن حزم بطرد الهمّ، هو الذي أسميناه بالسعادة، فالسعادة لا تتحقق إلّا بطرد الهموم التي تلمُّ بالنفس.

ومع انّ النّاس اتفقوا على هذا المذهب إلّا أنَّهم اختلفوا اختلافا كبيرا في تحديد السعادة التي ينبغي أن يقصدها الإنسان، ويسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة.

---

(١) كتاب الأخلاق والسير ص١٣ ، ١٤.

والسبب في هذا الاختلاف يعود إلى الجهل الذي لا يستطيع الإنسان أن يتخلص منه مهما أوتي من علم، فكثير من النّاس يطلب أمورا ويكون في تحقيقها دمارهم وهلاكهم، وآخرون يظنون أنَّ الشقاء يكمن في فعل أمور والسعي إليها، فينفرون منها نفور حمر الوحش من الأسد، وواقع الأمر أنَّ السعادة والصلاح في تحقيق هذه الأمور.

وهذا الجهل عائد إلى قلّة العلم بحقائق الأمور وبواطنها، وقلة العلم بالعواقب والنتائج، أضف إلى هذا أنَّ ما وراء الحياة الدنيا غيب لا يدركه الإنسان، فنظرة الإنسان نظرة محكومة بالدنيا، لا تتجاوزها إلى ما وراءها، لقصور علم الإنسان في هذا إذا اعتمد على نفسه.

ويقترن بالجهل ظلم النفس وطغيانها، فالنفوس بما حبّب إليها من الملذات العاجلة المرئية تتعامى عن الخير الحقيقي الذي يجب أن تقصده ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

من أجْل ذلك آثر كثيرون النفع الماديَّ وشهوات الدنيا التي تروي أهواء النفوس، وتركوا الآخرة وراءهم ظهريّا لأنّها تحتاج إلى جهد مبذول ومخالفة لأهواء النفوس.

ومن أجل عدم قدرة الإنسان على التعرف على السبيل الأقوم والمقصد الأسمى كانت الرسالات، وجاءت النبوات تجلّي له الحقائق وتبصره بالغاية والنهاية.

---

(١) سورة الأعلى / ١٦.

الدواعي الطبعية والدواعي الشرعية

هناك دوافع طبعية تدفع الإنسان إلى تحقيق مراده، وليس كلّ الدوافع الطبعية سيئة ولا قبيحة، بل كثير منها أوجده الله في الإنسان كي يندفع اندفاعاً ذاتياً لتحقيق مراده الذي تقوم حياته به، ولو لم يخلق الله له هذه الدوافع لما سعى في طلب الرزق، ولما تناول الطعام ولما سعى للزوجة. . . وقد لاحظ جمع من العلماء[1] أنّ الأمور التي لها دواع طبعية مغروسة في أعماق النفس الإنسانية اكتفى الشارع بشرعها، ولم يقم الدواعي إلى فعلها اكتفاء بالدوافع الداخلية، فهي وحدها كافية في الإلحاح على صاحبها كي ينال مراده منها، ولو قدّر أنّ بعض الناس أراد أن يعمل على تقويض مطلوبات النفوس وتحريمها، كالزواج والطيبات من الطعام. . . فإنّ الشارع يمقت فعلهم هذا، ويعدّه جريمة نكراء.

أماّ الأفعال التي تكرهها النفوس وتنفر منها، والشارع يريد من الإنسان تحقيقها والقيام بها، فإنّ الشارع يحدث لها من الدواعي بمقدار كراهيتها لها، ونفارها منها، ويكفي أن نعود إلى كتب الترغيب والترهيب، لنعلم ما أعدّه الله للذين يؤدّون الواجبات، ويكثرون من المستحبّات من أجر عظيم، وجزاء كريم، عندما تسمع به القلوب وتعيه فإنّه يستهويها، ويملك عليها أمرها، فلا تملك إلاّ أن تندفع إلى تحقيق ما طلب منها.

والناظر في سير الصالحين من هذه الأمّة يعجب من صبرهم على البأساء والضراء، وبذل أنفسهم في سبيل الله، لا يرهبون الردى، ولا يقيمون وزنا للأواء والآلام.

---

(١) راجع مقالات الإسلاميين ١١٤/٢، والداء والدواء ص١٥٩.

يعجب الناظر من صبرهم على السهر الطويل يصلّون ويستغفرون، ومن بذلهم الكثير والقليل، لا يطلبون جزاء ولا شكورا، ومن امتناعهم عن محبوبات النفوس صائمين في شهور الحرّ ذات النهار الطويل، وما ذلك إلّا لأنّهم علموا عن الله وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما جعل الله لمن استقام على شرعه، فلم يجدوا سبيلا إلّا في القيام بما أراد الله منهم مريدين نيل وعد الله.

ولقد رأينا الشارع يزيد من الدواعي والترغيب بما يوازي الدواعي الكبيرة التي تدعو إليها النفس والشيطان، بحيث يمنع النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذي يحسّن القبائح للإنسان؛ من السيطرة على قلب الإنسان ولبّه بحيث تكون الغلبة لهما.

فالأعمال التي تنفر منها النفوس، ويشق القيام بها عند بني الإنسان، يقيم الله لها الدواعي التي تجعلها خفيفة على النفوس، تسعى إليها عن رضا وطواعية.

وهذا منهج بيّن لمن استقرأ نصوص الكتاب والسنّة، ولذلك وصف الله كتابه بالتبشير والإنذار ﴿قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾.(١)

ووصف رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهاتين الصفتين: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾(٢).

---

(١) سورة الكهف/٢.

(٢) سورة الفتح/٨.

الفصل الأول

الغاية التي تتوجّه إليها مقاصد المكلّفين

obeikandl.com

obeikandl.com

غاية المكلف في عبادته غاية واحدة

المقاصد التي يقصدها المكلفون بالعبادة تنحصر في مقصد واحد، هو قصد الله دون سواه، فالعمل الذي لا يتوجه به إلى الله ليس له قيمة. ومن يستقرىء نصوص الكتاب والسنّة يعلم أنَّ هذا هو القصد الوحيد الذي يرتضيه الإسلام، فأوّل أمر في كتاب الله هو ما تضمنته هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾[2].

الغاية الواحدة في مصطلح القرآن هي الإخلاص

والقرآن الكريم يطلق على هذا القصد اسم (الإخلاص).

والإخلاص لا يراد به التوجه إلى الله في عمل من الأعمال، بل المقصود به أن يتوجه المكلف بأعماله كلِّها إلى الله وحده، دون سواه، فلا يقصد بعبادته مَلَكًا ولا مَلِكاً، ولا يعبد شجرا ولا حجرا ولا شمسا ولا قمرا. الإخلاص يعني أن يتوجه بالأعمال القلبية لله وحده، كما يتوجه بالأعمال الظاهرة. والإخلاص هو الدّين الذي بعث الله به الرسل جميعا، فكان محور دعوتهم ولبّها، وهو الدّين الذي طالبت به الرّسلُ الأمم التي ارسلت إليها: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة / ٢١.
(٢) سورة البيّنة / ٥.
(٣) سورة البيّنة / ٥.

وكلّ رسول كان يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1]، وقد قرّر الله هذه الحقيقة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لاَ إِلهَ إِلاّ أَنَا فاعْبُدونِ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3].

وتعريفات العلماء للإخلاص متقاربة، مدارها على قصد الله بالعبادة دون سواه، يقول الراغب في مفرداته: «الإخلاص: التعرّي عمّا دون الله»[4].

وعرّفه أبو القاسم القشيري[5] بأنّه: «إفراد الحقّ سبحانه وتعالى في الطاعات بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرّب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنّع لمخلوق، واكتساب محمدة عند النّاس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرّب إلى الله سبحانه وتعالى»[6].

وقال في موضع آخر: «يصحّ أن يُقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين»[7].

وعرفه العز بن عبد السلام قائلا: «الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد بها تعظيما من الناس ولا توقيرا، ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي»[8].

---

(١) سورة المؤمنون/٣٢.
(٢) سورة الأنبياء/٢٥.
(٣) سورة النحل/٣٦.
(٤) دليل الفالحين ٤٢/١.
(٥) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري من بني قشير بن كعب، شيخ خراسان في عصره من كتبه: (التيسير في التفسير). و(لطائف الإشارات)، و(الرسالة القشيرية)، مولده في سنة (٣٧٦هـ)، ووفاته (سنة ٤٦٥هـ).
راجع: (شذرات الذهب ٤/ ١٨٠)، و(الأعلام ٤/ ١٨٠).
(٦) الرسالة القشيرية (ص٩٥)، المجموع (٢٩/١)، دليل الفالحين (٤٢/١).
(٧) الرسالة القشيرية (ص٩٥)، المجموع (٢٩/١).
(٨) قواعد الأحكام ١٤٦/١.

وقال الحارث المحاسبي: «الإخلاص إخراج الخلق عن معاملة الربّ»[1].

وقال سهل بن عبد الله[2]: «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة»[3].

قال الغزالي بعد ذكره لهذا التعريف: «وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض»[4].

ومدار الإخلاص في كتب اللغة على الصفاء والتميز عن الأوشاب التي تخالط الشيء يقال: هذا الشيء خالص لك: أي لا يشاركك فيه غيرك.

وتطلق العرب (الإخلاص) على الزبد إذا خلص من اللبن والثفل.

و(الخِلاص) في لغة العرب: ما أخلصته النّار من الذهب والفضة.

والخالص من الألوان عندهم ما صفا ونصع.

ويقولون خالصه في العشرة: صافاه.

وجاءت هذه المعاني في الكتاب الكريم: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾[5]، اي لا يخالطه دم ولا روث.

والمراد بقوله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[6] في إخوة يوسف: أي انفردوا، وتميزوا عمّن سواهم.

والمراد بقوله: ﴿خَالِصَةً لِذُكُورِنا﴾[7]، فيما حكاه الله عن المشركين: أي لا يشركهم الإناث.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٨١/٤.

(٢) هو سهل بن عبد الله التستري، أحد أئمة الصوفية المتكلمين في الإخلاص والرياضة وعيوب الأفعال، له (تفسير القرآن)، و(دقائق المحبين)، ولادته في سنة (٢٠٠هـ)، ووفاته في سنة (٢٨٣هـ).
راجع: (وفيات الأعيان ٢١٨/١)، الأعلام ٢١٠/٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٣٨١/٤).

(٤) المصدر السابق.

(٥) سورة النحل / ٦٦.

(٦) سورة يوسف / ٨٠.

(٧) سورة الأنعام / ١٣٩.

وقال تعالى في الزينة والطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]، اي لا يشركهم فيها الكفار.

ومن هنا نرى أنَّ بين المعنى اللغوي والاصطلاحي تناسبا وتوافقا، فالإخلاص يهدف إلى تخليص القصد المتوجه إلى الله تعالى من الأوشاب والأخلاط والفساد الذي يزاحمه ويخالطه، بحيث يتصفى القصد لله عز وجلّ دون سواه في جميع العبادات.

شدة الإخلاص وصعوبته

الصدق في الإخلاص من أشقّ الأمور على النفوس، وهذه المشقة لا يعاني منها عوام النّاس ودهماؤهم دون العلماء والأئمة، بل كثير من العلماء والصالحين لاقوا هذه المعاناة، يقول سفيان الثوري: «ما عالجت شيئا عليّ أشدّ من نيتي، إنّها تتقلب علي»[2].

ولذلك كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- كثيرا ما يدعو بهذا الدعاء: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[3].

وكان يكثر في قسمه أن يقول: «لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»[4].

فالقلوب كثيرة التقلب والتحول في قصودها ونياتها، ومن شاء أن يعلم ذلك فلينظر إلى تحول قصده ووجهته في مدى ساعة واحدة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ وَهُوَ مُعَلَّقٌ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمن، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[5]...

---

(١) سورة الأعراف / ٣٢.

(٢) المجموع ١ / ٢٩.

(٣) الترمذي دعوات ٨٩، ١٢٤، ابن ماجه كفارات (المسند ٢٦/٢، ٦٧، ٦٨، ١٢٧)

(٤) صحيح البخاري (انظر فتح الباري ٣٧٧/١٣).

(٥) رواه أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه، والحاكم في مستدركه عن النواس (انظر صحيح الجامع ٥٦٢٣/٥)، وانظر (كنز العمال ٢١٦/١).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ تَقَلُّباً مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانَاً»[1].

والسبب في تقلّب القلوب يعود إلى كثرة الواردات التي ترد على القلوب، والقلب- كما يقول سهل بن عبد الله-: «رقيق تؤثر فيه الخطرات»[2].

وقد عدّ الحارث المحاسبي[3] الواردات التي ترد على القلب على ثلاثة معان:

الأوّل: تنبيه من الرحمن، ففي الحديث: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يَجْعَلْ لَهُ وَاعِظاً مِنْ قَلْبِه»، وفي الحديث الآخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَعَلَى جَنَبَتَيِّ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى الصِّرَاطِ دَاعٍ، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعَاً، وَلاَ تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئَاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ قال: وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ..

فَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ، وَالسُّورَانِ حُدودُ اللهِ تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[4].

ويرى المحاسبي أنّ واعظ الله يتحقق في قلب المسلم بأن يحدث الله الخاطر ببال عبده، وينشئه في قلبه، او بأن يأمر المَلَك بفعل ذلك.

الثاني: تزيين الشيطان ونزغه ووسوسته، وقد أمر الله رسوله أن يفزع إلى الله مستجيرا من نزغات الشيطان: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[5].

---

(١) أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن المقداد (كنز العمال ٢١٦/١).

(٢) عوارف المعارف ص٢١.

(٣) الرعاية ص٧٨، ٧٩.

(٤) رواه أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه عن النواس، (انظر مشكاة المصابيح ٦٧/١)، وصحيح الجامع الصغير ج٤ حديث رقم ٣٧٨٢.

(٥) سورة الأعراف / ٢٠٠.

وأخبر سبحانه أنَّ الشيطان يوسوس في صدور النّاس: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[1].

والشيطان عنده القدرة على أن يخالط القلب ويصل إليه، ففي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»[2]، وهو يوسوس للإنسان بالشرّ، فإذا ذكر العبد ربّه اختفى الشيطان، وهرب.

والشيطان يزيّن المعاصي والآثام للعبد، ويحرّكه إلى فعلها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[3]، أي تحرّكهم إلى المعاصي والآثام تحريكا.

وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[4].

وبيّن الله شيئا من سبل الشيطان في الوسوسة والتزيين والإضلال:

﴿لَعَنَهُ اللهُ، وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ، وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ، وَلَآمُرَنَّهُمْ، فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾[5].

وفي الحديث أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ، وَآبَاءِ آبَائِكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ.

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟

وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ.

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فقال: تُقَاتِلُ، فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟ فَعَصَاهُ، فَجَاهَدَ»[6].

---

(١) سورة الناس/ ٤، ٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم (مشكاة المصابيح ٢٦٨١).

(٣) سورة مريم/ ٨٣.

(٤) سورة فصلت/ ٢٥.

(٥) سورة النساء/ ١١٨ـ١١٩.

(٦) رواه أحمد في مسنده من حديث سبره بن أبي الفاكه (إغاثة اللهفان ١٠٧١).

ومن حكمة الله تعالى أن جعل قلوب العباد ميدان حرب وصراع، فالقلب يتعاوره ملك وشيطان، هذا يلمّ به مرة، وهذا يلمّ به أخرى.

يقول تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ، واللهِ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾(١).

ووضّح الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، ففي الحديث: «إنَّ لِلْمَلِك بِقَلْب ابْن آدَمَ لَمَّةً، ولِلشَّيْطَان لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلَكِ إيعَادٌ بِالْخَيْر، وَتَصْدِيقٌ بِالْوَعْدِ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَان ايعَادٌ بالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْمَوْعِدِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ، واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً، واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

يقول ابن القيم معقبا على الحديث: «فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن النّاس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضدّه، ومنهم من يكون زمنه كلُّه نهارا، وآخر بضدّه»(٣).

وقال الحسن البصريّ: «وإنّما هما همّان يجولان في القلب: همٌّ من الله، وهمّ من العدوّ، فرحم الله عبدا وقف عند همّه، فما كان من الله أمضاه، وما كان من عدوّه جاهده...»(٤).

والشيطان إنّما يصارع ليملك القلب ويستولي عليه، فيفسده، وبفساده يفسد الجسد كلّه، يقول الرسول ﷺ: «ألَا وإنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٥)، ويقول: «إنَّمَا الأَعْمَالُ كَالْوِعَاءِ، إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ طَابَ أَعْلَاهُ، وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ فَسَدَ أَعْلَاهُ»(٦).

---

(١) سورة البقرة/ ٢٦٨.
(٢) سورة البقرة/ ٢٦٨، والحديث رواه الترمذي، وقال فيه: هذا حديث غريب، (انظر مشكاة المصابيح ٢٨/١).
(٣) إغاثة اللهفان: ٢٨/١.
(٤) الغنية ١ / ٨٩.
(٥) رواه البخاري ومسلم، (صحيح الجامع ج٣، حديث رقم ٣١٨٨).
(٦) رواه ابن ماجه في سننه، وأحمد في مسنده، (صحيح الجامع ج٢، حديث رقم ٢٣١٦).

obeikandl.com

فالشيطان كما يقول ابن القيم: «يسحر العقل حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلّا من شاء الله، فيزيّن له الفعل الذي يضره، حتى يخيل إليه أنّه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء، حتى يخيّل إليه أنّه يضرّه. فلا إله إلّا الله، كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال بين القلب وبين الإيمان والإسلام والإحسان، وكم جَلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنّع الحقَّ وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين! وكم روّج من الزغل على العارفين! فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك....»[1].

الثالث: والجهة الثالثة التي تؤثّر في القلب بوارداتها- كما يرى المحاسبي- النَّفس، فالنَّفس أمّارة بالسّوء، تدعو إلى الطغيان وتأمر بالشرّ: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[2]. وقال نبي الله يعقوب لأبنائه عندما زعموا أنَّ الذئب أكل يوسف: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾[3].

وقال تعالى في حقّ ابن آدم الذي قتل أخاه: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ**﴾[4].

ومركب النفس الأمارة بالسوء الهوى والشهوات، فالمسلم لا ينجو إلّا بمجاهدة الهوى ومصارعته.

فهذه الثلاثة ترد على القلب، فيحتاج العبد أن يكون يقظاً دائماً، يردع نفسه عن هواها، ويكبح زمام النفس الأمّارة بالسوء، ويعدّ العدّة دائما لمحاربة عدوّه: الشيطان، ومصارعته بالأسلحة التي عرَّفه الله بها، من الذكر والتلاوة والعبادة ونحو ذلك.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٣٠.
(٢) سورة يوسف/ ٥٣.
(٣) سورة يوسف/ ١٨.
(٤) سورة المائدة/ ٣٠.

لماذا كان الله هو المقصود دون سواه[1]

التوجه إلى الله وقصده دون سواه ليس أمراً غفلا عن الأسباب المنطقية والحقائق الصادقة التي يطمئن إليها العقل وترضى بها النفس، وسنكتفي هنا بإيراد عجالة توضح بعض الحقائق التي تدعونا إلى أن نقصر قصدنا على ربنا في مجال العبودية والقربات.

١ـ الغاية التي ليس وراءها غاية:

الناس جميعاً مؤمنون وكفار لا بدَّ لهم من مراد يقصدونه، ويتوجهون إليه، على ذلك فطرهم الله، فالإنسان دائم الهمّ والإرادة، دائب العمل والحركة، ولذلك كان أصدق الأسماء حارث وهمّام كما ورد في الحديث[2]، لأنَّ كلَّ إنسان حارث بمعنى كاسب، وكلّ إنسان همّام، أي كثير الهمّ والإرادة.

فالإنسان مجبول على أن يقصد شيئا، ويريده، ويستعينه، ويعتمد عليه، في تحصيل مطلبه، قد يكون هو الله، وقد يكون غيره، ولكنَّ الإنسان لا يمكن إلّا أنْ يكون كذلك، أي له مراد يقصده ويتوجه إليه.

والسبب في ذلك أنَّ الإنسان فقير إلى غيره محتاج إليه، كي يسد نقصه، ويكمل عجزه ويحصل حاجته، وفقره هذا دائم لا يتوقف ولا ينقطع.

ومن عجائب الإنسان أنَّه إذا أراد شيئا من المخلوقات ثمَّ حصل عليه ملَّه وطلب غيره أو أكثر منه، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ

---

(١) للتوسع في دراسة هذا الموضوع راجع كتاب العبودية لابن تيمية.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والنسائي عن أبي وهب الجشمي، وكانت له صحبة (انظر حاشية المقاصد الحسنة ص٣١٩). وانظر ص٥٥.

وَادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى ثَالِثًا»[1]. فالنّفس الإنسانية دائمة التطلاب لما لم تحصل عليه، ولم تصل إليه، وليس هناك من شيء يمكن أن يسدَّ فقرها وحاجتها إلّا أن تصل إلى ربّها ومعبودها، فتعرفه وتقصده دون سواه، عند ذلك يجد القلب مطلوبه، وتحصل النفس على مرادها، فيكون الاطمئنان والراحة والهناء، وفي ذلك يقول ربُّ العزة: ﴿أَلَا بِذِكرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]، فليس هناك ما يمكن أن يجلب الطمأنينة إلّا الوصول إلى الربّ المعبود معرفة وقصدا وتوجها.

والنفس في طلب مرادها مترقية متسامية، تطلب الأكمل والأفضل، والكمال كلّه والفضل كلّه حازته الذات الإلهية، يقول ابن خلدون في هذا: «وتطلب غريزة العقل مقتضى طبعها: وهو المعرفة والعلم، فتحرك الفكر إلى تحصيله، وتشتاق إلى الكمال الأعلى بمعرفة خالقها، إذ لا ترى موجودا أكمل منه، فلا تزال تتطلع إلى جانبه بتصورات وأفكار تتعاقب عليها، تُلحم وتسدي، وتعيد وتبدي، وحركاتها في جميع هذه الأمور متواترة مترادفة، لا تفتر طرفة عين، ولا يلحقها من الكسل والملال ما يلحق الجوارح والأعضاء، وهي متنقلة دائما أسرع من إيماض البرق وحركة الدبال بالريح»[3].

والسبب الذي يجعل كثيرا من الناس يطلبون الأدنى من الأمور، ويقصدون ما لا يملك لهم ضرّا ولا نفعا- فساد العلم، وكثرة الجهل، وضعف الهمّة، فكلّما صحّ العلم، وانتفى الجهل، وصحّت العزيمة، وعظمت الهمّة؛ طلب الإنسان معالي الأمور، فبعض النّاس همّه لقمة يسدّ بها جوعته، وشربة روية تذهب ظمأه، ولباس يواري سوأته- وهو مذهب ذمّ أهل الجاهلية أصحابه، وفي مثل هؤلاء يقول حاتم طيء: (٤)(٥)

---

(١) متفق عليه (مشكاة المصابيح ٢/٦٧٢).

(٢) سورة الرعد / ٢٨.

(٣) شفاء السائل (٢٣).

(٤) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي القحطاني، فارس شاعر جاهلي، يضرب المثل بجوده، وفاته سنة (٤٦) قبل الهجرة. راجع: (الأعلام) ((١٥١/٢).

(٥) عيون الأخبار (١ / ٢٢٣).

لَحَى اللهُ صُعْلُوكَـاً مُنَـاهُ وَهَمُّـهُ مِنَ الْعَيْشِ أَنْ يَلْقَى لُبُوساً وَمَطْعَمَـاً
يَرَى الْخُمْصَ تَعْذِيباً وَإِنْ يَلْقَ شَبْعَةً يَبِتْ قَلْبُـهُ مِنْ قِلَّةِ الهَمِّ مُبْهَمَـاً

ومن الناس من يكون مطلبه التمتع بمتاع الحياة الدنيا كحال طرفة بن العبد[1] الشاعر الجاهلي حيث يقول:[2]

وَلَوْلَا ثَلَاثُ هُنَّ مِنْ عِيْشَـةِ الْفَتَى وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَـامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَـاذِلَاتِ بِشَـرْبَـةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِـالْمَاءِ تُـزْبِدِ
وَكَـرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَـافُ مُحَنَّبَـاً كَسِيـدِ الْغَضَـا نَبَّهْتَـهُ الْمُتَـوَرِّدِ
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدجنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبُ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَـاءِ الْمُعَمَّـدِ[3]

كثير من الناس همّه من دنياه همّ هذا الشاعر المسكين، شربة خمر، والتمتع بامرأة حسناء، وقليل من النّاس تنهض همته إلى الدفاع عن الخائف المستجير.

وقد يكون مسعى الناس ومطلبهم أمورا يعدّ طالبها سامي الهمّة عالي القصد كحال امرىء القيس[4]، عندما أفاق من سكره وعبثه على زوال ملك أبيه، فانقلب جادّا طالبا إعادة هذا الملك[5]:

فَلَوْ أَنَّ مَـا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَـةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَـا أَسْعَى لِمَـجْـدٍ مُؤَثَّـلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَـالِي

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان البكري الوائلي شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، أشهر شعره معلقته التي هي إحدى المعلقات السبع، توفي شابا في البحرين سنة (٦٠) قبل الهجرة. راجع الأعلام(٣ / ٣٢٤).

(٢) شرح المعلقات للزوزني ص٨٢، ٨٣.

(٣) الجدّ: الحظ والبخت، والعوّد: جمع عائد من العيادة، والعاذلات: جمع عاذلة والعذل الملامة. والكميت اسم من أسماء الخمر فيها حمرة وسواد. والكر: العطف. والمحنّب: الذي في يده انحناء، والسيد: الذئب. والغضا: الشجر. وقصرت الشيء: جعلته قصيرا. والدجن: إلباس الغيم آفاق السماء. والبهكنة: المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة. والمعمد: المرفوع بالعمد.

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكنديّ، أشهر شعراء الجاهلية على الإطلاق يماني الأصل، مولده بنجد سنة (١٣٠) قبل الهجرة، وكان والده ملك غطفان، توفي سنة (٨٠) قبل الهجرة.
راجع : (الأعلام ١ / ٣٥١).

(٥) عيون الأخبار (١ / ٢٣٥).

ولقد طال تطلابه للملك، حتى قضى نحبه في طلبه:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

لقد ضيّع حياته أولا في المتع والشهوات، وقضى شطر عمره الثاني في طلب الملك الضائع، وانتهت حياته، ولم يحصّل مطلوبه، ومات كما مات المتنبي[1] من بعده، طلبا الملك والإمارة، فأعياهما الطلب.

أما همّة المسلم فلا تقف إلّا أن تصل إلى الغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي لا مطلوب بعده. قيل لأحد الصالحين: فلان بعيد الهمّة، قال: إذن لا يرضى بما دون الجنة، وفي عيون الأخبار أنَّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، جاءه دكين الراجز، فقال له عمر: يا دكين، إنَّ لي نفساً توّاقة، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلمّا نلتها تاقت إلى الخلافة، فلمّا نلتها تاقت إلى الجنة[2].

٢ـ هو المستحقُّ لأن يقصد ويعبد:

والله وحده المستحقّ لأن يقصد دون سواه، لأنّه المعبود الذي يتصف بصفات الجلال والكمال، فهو الكامل في ذاته وصفاته، وهو المنعم المتفضل بيده النفع والضر، والخفض والرفع، والعطاء والمنع والنصر والخذلان، والعزُّ والإذلال: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ، وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[3].

---

(١) هو أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي الشاعر الحكيم، قال الشعر صبيا ومدح به الحكام، وسعى إلى الإمارة فلم يحصل شيئاً، مات قتيلاً في الطريق إلى بغداد، حياته (٣٠٣ـ٣٥٤هـ).
راجع: (وفيات الأعيان ١/١٢٠)، (لسان الميزان ١/١٥٩)، و(الأعلام ١/١١٠).

(٢) عيون الأخبار (١ / ٢٣١).

(٣) سورة آل عمران / ٢٦ ـ ٢٧.

فهو وحده المطلوب المقصود، لأنَّه الخالق الهادي المطعم المسقي، الذي يشفي من الأمراض، والذي يغفر الذنوب والخطايا: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، والذي أَطمع أَنْ يغفر لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾[1].

فمنه المبتدأ وإليه المنتهى ـ له الحمد في الأولى والآخرة، لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى، وَأَنَّه هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وأَحْيَا، وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إذا تُمْنَى، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى، وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى...**﴾[2].

فمن كانت هذه صفاته، وتلك أفعاله ـ فإنَّه الذي يستحق العبادة دون سواه، وهو الذي ينبغي أن يكون المقصد والمعاذ والملاذ.

والتوجه إليه وقصده بالعبادة حقه الخالص الذي لا يشركه فيه أحد، فعن معاذ ابن جبل، قال: «كنت رديف النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» فقلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً..»[3].

فهو الذي يستحقُّ العبادة خوفا ورجاء، ورغبة ورهبة، وتوكّلا واعتمادا، وصلاة وصياما، وزكاة وحجّا، ونذرا ودعاء...

هو المستحقّ لذلك لذاته ـ سبحانه ـ ولو لم يخلق جنّة ولا نارا، ولم يضع ثوابا ولا عقابا، كما جاء في الأثر: «لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّة وَلَا نَاراً أَمَا كُنْتُ أَهْلاً أَنْ

---

(١) سورة الشعراء/ ٧٨ ـ ٨٢.

(٢) سورة النجم/ ٤٢ ـ ٥١.

(٣) متفق عليه (مشكاة المصابيح ١/١٤).

أُعْبَدَ؟»[1] وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ..﴾[2].

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:

هَبِ الْبَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسُلُهْ ... وَجَاحِمَةُ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ
أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحِقِّ ... إِطَاعَةُ رَبِّ الْوَرَى الأَكْرَمِ؟

٣ـ السعادة في قصده، والشقاء في توجيه القلوب إلى سواه:

إذا كانت الغاية التي يرمي إليها العبد من وراء عمله غير مقصورة على الله ـتعالىـ فإنَّ الإنسان يشقى بعمله وبنفسه، وتصبح الحياة قطعة من الشقاء، ولا يغني عن الإنسان أن يحوز الدنيا، ويملكها، فإنَّ منابع السعادة والشقاء هناك في أغوار النفس الإنسانية، فالإنسان مفطور على أن يتوجه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة، فمتى حرم الإنسان من هذا التوجه فإنّه لا يغني عن هذا التوجه شيء، لأنَّ النفوس في تطلاب دائم لمعبودها وخالقها وفاطرها، إنَّ التوجه لغير الله مخالف للفطرة الإنسانية، والمتوجه إلى غير الله حاله كحال الذي يستعمل ساعة يده مطرقة حديد، فإنّه يظلم الساعة، لأنَّها لم تصنع لذلك، والنفس الإنسانية خلقت للعبادة والتوجه إلى الله، فإن توجهت إلى غيره فقد ظلمت، ولذلك جاء في القرآن: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] والتوجّه إلى غير الله إفساد للنفوس.﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[4]، كما أن التوجه إليه وحده بالعبادة إصلاح وتزكية:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا..﴾[5].

إنَّ فطرة الإنسان تدفعه إلى التوجه إلى المعبود، والفطرة قد لا تعرف المعبود الحقّ، ولكنّها تطلبه دائما، وقد أرسل الله رسله كي يهدوا النّاس إلى معبودهم

---

(١) هذا أثر يروى وليس له وجود في كتب السنة.
(٢) سورة المدثر / ٥٦.
(٣) سورة لقمان / ١٣.
(٤) سورة الشمس / ١٠.
(٥) سورة الشمس / ٩.

الحق، وعند ذلك يصل الإنسان إلى مطلوبه ومعبوده الذي لا غنى له عنه ولا سكون له إلا به، ذلك مقتضى طبعه، وتلك حاجة نفسه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم﴾[1].

فالإنسان يشقى إذا كان وجهه وقصده وهمه لغير فاطره، ويشقى مرة أخرى لأنَّ همومه تتعدد، وغاياته تتشتت، فإذا لم يكن همّ العبد همّاً واحدا تقاسمته هموم الدنيا، فعند ذلك لا يدري إلى أين يسير، ولا كيف يتجه؟! فمرة يشرّق، ومرة يغرب، ومرة يعبد صنما، وأخرى شمسا وقمرا، ويحاول إرضاء هذا مرة، وذاك مرة، والذي رضي عنه قد يغضب عليه، والذي زين له العمل قد يستقبحه منه بعد حين، وعند ذلك يصاب الإنسان بما أسماه علماء النفس بالصراع النفسي، والقلق الروحي، والعقد النفسية والأمراض...، وقد يصل الأمر بالإنسان إلى الانتحار. أمّا المسلم فغايته واحدة، ومنهجه الذي يؤدي إلى الغاية واحد، وهو قادر على أن يرضي الله ويسير على هداه، وبذلك تجتمع على العبد نيّته، ويتوحد مطلوبه، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَتْ نِيَّتَهُ الآخرةُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتَهُ طَلَبُ الْدُّنْيَا جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَشَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَلَا يَأْتِيْهِ مَنْهَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ»[2].

وانقسام الغاية يشقي الإنسان، لأنَّ الإنسان ذو قلب واحد لا يمكنه أن يتخذ معبودين، ويتجه إلى غايتين تتقاسمان أعماله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.[3] فالانسان له قلب واحد ينبغي أنْ يتوجَّه إلى ربٍّ واحد، فإنْ توجّه إلى معبودين سبَّب ذلك للإنسان شقاءً وأيَّ شقاء. وخلاصة القول أنَّ التوجه إلى غيره في جملته شقاء، شقاء القلب والنفس، وهو كذلك ضلال عن الحقّ، وبعد

---

(١) سورة الروم / ٣٠.

(٢) رواه الترمذي عن أنس وأحمد والدارمي عن أبان عن زيد بن ثابت (انظر الدين الخالص ٣٨٨/٢).

(٣) سورة الأحزاب / ٤.

عن جادة الصواب. والسعادة تكمن في التوجه الصادق إلى الله دون سواه.

هذا في الدنيا، وهناك السعادة والشقاء في الآخرة، وهما مرتبطان بمسيرة الإنسان في هذه الحياة، فالذي توجه إلى الله وحده في الدّنيا دون سواه، وعمل في دنياه للغاية الباقية، فإنّه في الآخرة من الفائزين السعداء، وتلك السعادة كما يقول الغزالي: «بقاء بلا فناء، ولذة بلا عناء، وسرور بلا حزن، وغنى بلا فقر، وكمال بلا نقصان، وعزّ بلا ذلّ»[1].

وهذه هي السعادة الحقيقية الباقية الدائمة، وغيرها مضمحلّ ذاهب. يقول ابن حزم في هذا: «إذا تعقّبت الأمور كلّها فسدت عليك، وانتهت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أنّ الحقيقة إنّما هي العمل للآخرة فقط؛ لأن كل أملٍ ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك، وإمّا بذهابك عنه؛ ولا بدَّ من أحد هذين السبيلين؛ إلا العمل لله عزوجل، فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل: أمّا في العاجل فقلة الهمّ بما يهتمّ به النّاس، وإنّك به معظّم من الصديق والعدو؛ وأمّا في الآجل فالجنّة»[2].

وفي السعادة والشقاء الدنيوي والأخروي يقول ربّ العزة: ﴿**فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**﴾[3].

٤ـ لا سبيل إلى تحرر النفس الإنسانية إلّا بتوجهها إليه:

إنَّ مفهوم العبودية لله في الإسلام يعني الحرّية في أرقى صورها وأكمل مراتبها، العبودية لله إذا كانت صادقة تعني التحرر من سلطان المخلوقات والتعبد لها، فالمسلم ينظر إلى هذا الوجود نظرة صاحب السلطان، فالله خلق كل ما فيه من

---

(١) ميزان العمل ص١٨٠.
(٢) الاخلاق والسير ص١٣.
(٣) سورة طه / ١٢٣ ـ ١٢٧.

أجلنا، وسخّره لنا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه. . .﴾[1].

وما دام الأمر كذلك فالمسلم لن يخضع لهذه المخلوقات، ولن يقصدها لأنّها أقل منه شأنا، فهي مخلوقة لنفعه وصلاحه.

والمسلم لن يستعبده إنسان مثله، فالنّاس جميعا عبيد الله، فإنْ حاول بعض المتمردين من بني الإنسان أن يطغى ويبغي- وقف المسلم في وجهه يقول كلمة الحق، ويذكّر هؤلاء بأصلهم الذي منه خلقوا، ومصيرهم الذي لا بدَّ لهم منه، ويذكّر هؤلاء بضعفهم وعجزهم، علّهم يفيقون ويرجعون. وبالعبودية لله يتحرّر الإنسان مِنْ أَهْوائِهِ، فالهوى شَرُّوثنٍ يُعْبد: ﴿أرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ﴾[2] فالهوى قد يُجْعل إلها معبودا يسيطر على نفس صاحبه، فلا يصدر إلاّ عن هواه، ولا يسعى إلاّ لتحقيق ما يبعثه إليه، والإسلام يعتبر الخضوع لأهواء النفس التي تدعو إلى المحرمات والآثام عبودية لهذه الأمور. أمّا التسامي عمّا تدعو إليه النفس من المحرَّمات -وإن كانت محبوبة للنفوس- فإنّه يمثل في الإسلام الحريّة الحقّة، لأنّه وإنْ قيدت حرّيته من جهة، بأن ألزم بترك بعض ما يشتهي، إلاّ أنّه تحرّر من سلطان الهوى من جهة أخرى.

والذين يزعمون أنّهم يستطيعون تحقيق الحريّة بعيدا عن الله ومنهجه مخطئون، لأنَّ الإنسان، بل كلّ مخلوق، سيبقى عبدا شاء أم أبى، إلاّ أنّه إن رفض الخضوع لله اختيارا فسيخضع لمخلوق مثله، لا يملك له نفعا ولا ضرّا، بل قد يخضع لمن هو أقل منه شأنا، وبذلك يكون قد استبدل عبودية بعبودية، ولم يخرج من العبودية إلى الحرية، بل خرج من عبودية الله إلى عبودية الطاغوت، وثنا، أو صنما، أو بشرا، أو شمسا، أو قمراً . . . ، وقد ذمّ الله كلّ من كانت هذه

---

(١) سورة الجاثية / ١٣

(٢) سورة الفرقان / ٤٣

صفته ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[1]، فمما ابتلاهم به جزاء تكذيبهم أن جعلهم عبيدا للطواغيت بعد أن كانوا عبيدا لله.

وفي هذه الأيام تتردّد كلمة الحريَّة، ويزعمون أنَّ الثورة الفرنسية أعلنت هذا المبدأ، وأنَّ هيئة الأمم المتحدة أقرت الحرية مبدأ، وليس الأمر كذلك، فإنَّ ما فعله هؤلاء أنَّهم أخرجوا النّاس من عبودية نظام وقانون وطائفة، إلى عبودية نظام آخر، وقانون آخر، وطائفة أخرى، ولكنَّ هؤلاء جميعا بَقَوْا عبيدا، وإن ظَنّوا أنفسهم أحرارا، ولن يحرّرهم من سلطان البشر ويخلصهم من العبودية الظالمة إلّا أن يكونوا عبيدا لله، يقصدونه وحده، وعند ذلك يتحرّرون من سلطان الآخرين، حتى من هوى النفوس التي تتردّد في أجسادهم.

وأكثر الناس بعدا عن العبودية لله هم أكثر الناس عبودية لغير الله، فهؤلاء الشيوعيون أعظم الناس تمردا على الله وبعدا عنه، يستكبرون حتى عن التصديق بوجوده، وهم أعظم الناس عبودية لغير الله، فالفئة الحاكمة في روسيا والصين تسيطر على رقاب الناس سيطرة كبيرة، فلا يكادون يجدون طعم الحياة.

والحريّة هناك وهم كبير، وسراب خادع، أراد الشيوعيون أن يتحرروا من سلطان الله، فأقاموا الدولة إلها تصادر حريّة الأفراد، وتمنعهم من إبداء الرأي، وتتحكم في ممتلكاتهم، وتسوق الملايين إلى المعتقلات في صحراء سيبيريا، وإلى السجون التي غصَّت بالنزلاء على سعتها وكثرتها، وفي الأعياد يمرّ عشرات الملايين من البشر مطأطئي الرؤوس أمام جثة مؤسس المذهب المحنطة في الميدان الأحمر في موسكو!! لقد أخرجوا النّاس من ظلمات متراكمة إلى ظلمات أشدّ، وأخرجوهم من عبودية إلى عبودية، ولن يكون من مخلص من العبودية لغير الله إلا هذا الإسلام. ولقد صدق موفد المسلمين وبرّحين واجه قائد الفرس قائلا: «الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل

---

(١) سورة المائدة/ ٦٠.

الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[1]. وكلّ من لم يرض بالإسلام دينا، وبحكمه حكما، فإنّه غارق في قاذورات الجاهلية: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾[2]. والذين يرفضون أن يكون الله معبودهم فإنَّهم يهينون أنفسهم بتعبيدها لمخلوقات أقل منها شأنا وأحقر منزلة، وهم في ذلك يُدسّون هذه النفوس. والإسلام يعدّ الذي يكون جلّ همّه وغاية مطلبه الدينار والدرهم والملبس والمأكل؛ عبدا لهذه التي سيطرت على نفسه: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، تعس عبد الدرهم، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»[3].

٥ـ غنى الله عن العباد وإحسانه إليهم:

ومما يوجب على العباد التوجه إلى ربِّ العباد دون سواه أنَّه سبحانه وتعالى محسن إليهم، متفضل عليهم، وهو غني عنهم، يجلب لهم الخير ويكشف عنهم الضرّ، لا لجلب منفعة إليه من العبد ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانا. والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبّوه، ويعظّموه، ويجلبوا له منفعة، ويدفعوا عنه مضرة، وإن كان ذلك أيضا من تيسير الله تعالى. فإنهم لا يفعلون ذلك إلّا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله، فإنَّهم إذا أحبّوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبّتهم، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر، وإذا أحبّوا الأنبياء والصالحين طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك. وكذلك من أحبَّ إنسانا لشجاعته أو لرياسته أو جماله أو كرمه، فهو يحبّ أن ينال حظّه من تلك المحبّة، ولولا التذاذه بها لما أحبّه، وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرّة كمرض وعدوّ ولو بالدعاء أو

---

(١) البداية والنهاية (٣٩٧/٧) ط الثانية ١٩٧٧ مكتبة المعارف ـ بيروت.

(٢) سورة المائدة / ٥٠.

(٣) حديث نبوي رواه البخاري في صحيحه (مشكاة المصابيح ٦٤٩/٢)، والخميصة: ثوب خَزّ، أو صوف معلم، وقوله: (انتكس)، اي صار ذليلا، دعاء عليه، وقوله: (شيك) أي دخل الشوك في عضوه، وقوله: (انتقش): اي لا يقدر على إخراجه.

الثناء ـ فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله، فأجناد الملك وعبيد المالك وأجراء الصانع وأعوان الرئيس؛كلّهم إنّما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرّج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلاّ أن يكون قد عُلّم وأدّب من جهة أُخرى، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع على عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلاّ فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه، وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

العباد يقصدون نفع أنفسهم، والربّ يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وهي منفعة لك بلا مضرة.

حكم الإخلاص في العبادات

يقول صدّيق حسن خان[1]: ولا خلاف في أنَّ الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله[2]، وممّن نصَّ على ذلك العزّ بن عبد السلام، قال: «إخلاص العبادة شرط»[3]، وقد عدّه القرطبي: واجبا[4]، وابن تيمية: فرضا[5].

ولذلك كان عجيبا أن يصحح بعض فقهاء الأحناف عبادة من لا إخلاص لهم، يقول الحموي: «إذا صلى رياء وسمعة تصحّ صلاته في الحكم، يعني لوجود شرائطها وأركانها، ولم يستحقّ الثواب لفقد الإخلاص»[6].

ويقول في موضع آخر: «النيّة الخالصة ظاهرة في حصول الثواب لا الصحة،لأنَّ الثواب يبنى على وجود العزيمة وهو الإخلاص، وأمّا الصحة فلا تتوقف على الإخلاص، بل على أصل النية، فإنّه لو صلّى رياء صحّت صلاته، وكان غير مثاب عليها»[7].

ويقول ابن عابدين: «الإخلاص شرط للثواب لا للصحة، فإنّه لو قيل لشخص صلّ الظهر ولك دينار، فصلّى بهذه النيّة، ينبغي أن يجزيه، وأنه لا رياء في

---

(١) هو محمد صديق حسن خان بن علي الحسيني، ولد في (قنوج) بالهند، (١٢٤٨هـ)، كان ثريًا وتزوج ملكة بهوبال، له نيّف وستون مؤلفا، منها (تفسيره للقرآن)، و(حسن الأسوة فيما ثبت عن الله ورسوله في النسوة)، و(الدّين الخالص)، توفي في عام (١٣٠٧هـ). راجع: (الأعلام ٣٦٧).

(٢) الدين الخالص ٢ / ٣٨٥.

(٣) قواعد الأحكام ١ / ٢٠٧.

(٤) تفسير القرطبي ٢٠ / ١٤٤.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٦).

(٦) غمز عيون البصائر ١/٣٠، ٣٢.

(٧) المصدر السابق.

الفرائض في حقّ سقوط الواجب، فهذا يقتضي صحة الشروع مع عدم الإخلاص»(١).

وهذا الذي قرراه لو أراد به عدم مطالبة من لم يخلص بالعبادة في الدنيا، وإنما هو أمر بينه وبين الله تعالى كما يقول صاحب الذخيرة المرضية(٢) ـ لكان قولهم صحيحا، أما وهم يصححون عبادته، ويعدّون النية شرطا للثواب لا للصحة فلا.

وما قاله هذان الفقيهان(٣) هو أثر من آثار تقسيم العلوم الإسلامية إلى وحدات مستقلة، وقد وصل الأمر إلى درجة أن كادت تنفصم الوشيجة التي تربط بينها جميعا، فالإخلاص ـ وهو أحد مباحث علم التوحيد ـ أصل لكلّ عمل قلبي أو قولي أو بدني، وكان ينبغي أن يعنى بهذا عناية تامة، أما أن يزعم بعض المتأخرين «أنَّ الإخلاص أمر زائد على النيّة لا يحصل بدونها، وقد تحصل بدونه، وأنَّ نظر الفقهاء قاصر على النية، وأحكامهم تجري عليها»(٤)، فهذا قول غير صحيح.

وقد حكم السيوطي ببطلان عبادة من نوى بذبحه الأضحية أن تكون لله ولغيره(٥)، وما ذلك إلّا لأنَّها فقدت الإخلاص.

وقد ذكرنا قول بعض العلماء الذين عدّوها شرطا. وممن نصَّ على بطلان عبادة غير المخلصين الحطّاب، قال: «فالمخلص في عبادته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء، وذلك لا يتأتى له إلّا بأن يكون الباعث له على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى، وابتغاء ما عنده، فأما إذا كان الباعث عليها غير ذلك من أغراض الدنيا فلا تكون عبادة، بل مصيبة موبقة لصاحبها»(٦).

---

(١) حاشية ابن عابدين ١/٣٠٤.

(٢) الذخيرة المرضية ص٢٢.

(٣) هذه المسألة ليست اتفاقية عند الأحناف، فقد عدَّ الكاساني ـ في بدائع الصنائع (١/١٢٧) ـ النيَّة شرطا من شروط صحة الشروع في الصلاة، وعلَّل ذلك: «بأنَّ الصلاة عبادة، والعبادة إخلاص العمل بكليته لله، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، والإِخْلَاصُ لَا يَحْصلُ بدونِ النِّيَّة، وَقَالَ النبيُّ ﷺ: «لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ»، وقال: «إنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى».

(٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ص٢٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الحطاب على خليل ٢/٥٣٢ وقد نقل كلامه عن القرطبي.

obeikandi.com

وتحدّث ابن تيمية عن الذين يدفعون زكاة أموالهم إلى السلطان خشية أن تضرب أعناقهم، أو تنقص حرماتهم، أو تؤخذ أموالهم، وعن الذين يقومون يصلّون خوفا على دمائهم وأغراضهم...، تحدث عنهم واصفا إياهم بالنفاق والرياء، ثمَّ قال: «عندنا وعند أكثر العلماء، أنَّ هذه العبادة فاسدة، لا يسقط الفرض بهذه النية»(١).

وما لنا نذهب بعيدا والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إنَّ اللهَ تَعَالَى لاَيَقْبَل مِنَ العَمَلِ إلاّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصَاً، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٢٦، ٣٠.

(٢) رواه النسائي عن ابي أمامة (انظر صحيح الجامع ج٢ حديث رقم ١٨٥٢).

obeikandl.com

الفصل الثاني

مفهومات خاطئة للإخلاص

obeikandl.com

obeikandl.com

مفهومات خاطئة للإخلاص [1]

من المعضلات التي واجهت البشر في القديم والحديث أنهم لا يدورون مع الحقّ حيث دار، بل يجنحون إلى الافراط أو التفريط، فنجد أقواما يؤلّهون عيسى، وآخرين يلعنونه. ونجد أقواما كالشيوعيين يحرمون الفرد حريته، وآخرين يتمادون في إعطائه الحرية بلا قيود كالرأسماليين، وجاء الإسلام بالمنهج الوسط، وكانت هذه الأمة أمة وسطا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[2] والوسط خير الأمور، فالفردوس أعلى الجنّة ووسط الجنّة، ومنه تفجر أنهار الجنة كما ورد في الحديث.

وفي موضوع البحث غلا أقوام غُلوّاً شديداً في تعريف الإخلاص، حتى عدوا تحصيله ضربا من الخيال، ولو تفكرنا فيما وضعوه من مواصفات للإنسان المخلص لعسر علينا أن نجد مسلما يتحقق الإخلاص فيه.

ومهمتنا هنا أن نعيد الحقّ إلى نصابه، وأن نكشف الزيف الذي علق بهذا الموضوع الخطير الذي يعدُّ أصل الأصول، وغاية الغايات، وإلاَّ فإنَّ اليأس سيصيب السالكين إلى الله، وعند ذلك سيقعدون عن العمل، بل سيتوجهون إلى الأعمال المخالفة لمنهج الله.

---

(١) راجع في هذه المسألة ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العبودية، وفي ج١٠ من مجموع الفتاوى.

(٢) سورة البقرة/ ١٤٣.

١ـ الإخلاص والتجرد عن الإرادة

يرى بعض السالكين أنَّ الاخلاص لا يتحقق إلا إذا تجرد الإنسان عن إرادته، وتجرد عن رؤية أعماله، وعدُّوا النظر إلى شيء من ذلك قادحا في الإخلاص: فالسهروردي يصف هؤلاء بأنَّهم غابوا في إخلاصهم عن إخلاصهم، ويذكر عن بعضهم قوله: «متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص»[١]. ويعرّف الجرجاني[٢] المريد بأنَّه المجرد عن الإرادة، وينقل عن محيي الدين بن عربي أنّه قال في الفتح المكي: «المريد من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار، وتجرد عن إرادته»، وعلَّل مقالته هذه بأنَّ المريد: «يعلم أنَّه لا يقع في الوجود إلاّ ما يريده الله تعالى، لا ما يريده غيره، فيمحو إرادته في إرادته، فلا يريد إلاَّ ما يريده الحق»[٣].

وفي موضع آخر يعرف الجرجاني المريد بأنَّه:«المتجرد عن إرادته»،وينقل عن أبي حامد بأنَّه عرف المريد بقوله: «هو الذي فتح له باب الأسماء، ودخل إلى جملة المتوصلين إلى الله تعالى بالاسم»[٤].

وذكر الجرجاني مرتبة فوق ذلك عنده، فقد عرَّف المريد بأنَّه«عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمور له، فجاوز الرسوم كلّها والمقامات من غير مكابدة»[٥].

---

(١) عوارف المعارف ص٧١.

(٢) هو علي بن محمد بن علي السيد الزين الجرجاني، من كبار علماء العربية، ولد في (تاكو) سنة (٧٤٠هـ)، ودرس في شيراز، وتوفي بها سنة (٨١٦هـ)، له كتاب (التعريفات)، و(شرح مواقف الإيجي). راجع: (الأعلام ٥/٨١٦).

(٣) التعريفات ص١٨٤.

(٤) المصدر السابق ص٢٣٤.

(٥) المصدر السابق.

ووضّح الغزالي هذا في الإحياء، فقال: «النيّة إنما مبدؤها من الإيمان، فالمؤمنون يبدأ لهم من إيمانهم ذكر الطاعة، فتنهض قلوبهم إلى الله من مستقر النفس، فإنَّ قلوبهم مع نفوسهم، وذلك النهوض هو النيّة»، ثم بيّن أنَّ أقواما لا يحتاجون إلى النيّة، لأنَّهم صاروا إلى حال فوق ذلك، فقال: «وأهل اليقين جاوزوا هذه المنزلة، وصارت قلوبهم مع الله مزايلة لنفوسهم بالكليّة، ففرغوا من أمر النيّة، إذ هي النهوض، فنهوض القلب من معدن الشهوات والعادات إلى الله تعالى بأن يعمل طاعة وهو بنيّة، والذي صار قلبه في الحضرة الأحديَّة مستغرقا محال أن يقال نهض الى الله في كذا وهو ناهض بجملته مستغرق في جزيل عظمته، قد رفض ذلك الوطن الذي كان موطنه وارتحل إلى الله»[1].

وهذا الذي نقلناه عن هؤلاء يحتاج إلى تمحيص وبيان.

هل يمكن العمل بدون إرادة:

الأمر الأول الذي يحتاج إلى تمحيص هو دعوى إمكان العمل بغير إرادة، هل يمكن ذلك؟ لقد تخيّل بعض النَّاس أنَّ ذلك ممكن، وظنُّوا أنَّ كمال العبد ألاّ تبقى له إرادة أصلا، ولعلَّ السبب في خطئهم أنَّهم لم يشعروا بإرادتهم لفرط تعبدهم، فالإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر، فلمّا لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها، وهذا غلط، فالعبد لا يتصور أن يتحرك إلا عن إرادة وهمّ.

وقد يريد بعض العباد والسالكين بالتجرد عن الإرادة قصد الله وحده والتوجه إليه دون سواه، والفناء في ذلك بحيث لا يشهدون سواه، ويسمّون هذا (الفناء عن شهود السوي)، وواقع الأمر أنَّ شدَّة انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبَّته سبَّب للقلوب ضعفا عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، فلا يخطر بقلوبهم غير الله، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾[2] قالوا: فارغا من كلّ شيء إلا من ذكر

---

(١) إحياء علوم الدين.

(٢) سورة القصص / ١٠.

موسى، ومثل هذا يحدث لمن فجأه أمر شديد من حبٍّ أو خوف أو رجاء، فإنَّ القلب يبقى منصرفا عن كلّ شيء إلاّ عمّا قد أحبّه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغرافه في ذلك لا يشعر بغيره.

وعندما يقوى هذا الحال عند السالكين يغيب الواحد منهم بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبّدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الربُّ تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وفي مثل هذه الحال يضعف المحبّ ويضطرب في تمييزه، فقد يظن أنَّه هو محبوبه.

وهذا الموضع زلّ فيه أقوام، وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في مثل هذا، فضلا عمّن هم فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشي أو صعق أو فناء أو سكر أو وَلَهٌ أو جنون، وإنَّما كان مبادىء هذه الأمور في التابعين من عبّاد البصرة، فإنّه كان فيهم من يُغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت.

وصار في بعض العبّاد والنسّاك بعد ذلك من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنَّه غالط فيه.

وهذه الأحوال ليست كمالا بحال من الأحوال، فالكمال هو قصد الله وحده دون سواه، مع بقاء العلم والتمييز، بحيث يعرف القاصد الأمور على ما هي عليه، والكمال لا يقتضي أن يغيب العبد عن مشاهدة المخلوقات، بل يشهدها قائمة بأمر الله، مدبَّرة بمشيئته مستجيبة له قانتة له، فيكون للعباد فيها تبصرة وذكرى، ويكون

ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدّا لما في قلوبهم من إخلاص الدّين، وتجريد التوحيد لله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

وحسبنا أن نعلم أنَّ الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ عرج به إلى السموات العلا، وعاين هناك ما عاينه من الآيات، وأوحى الله إليه ما أوحى من أنواع المناجاة، وأصبح في غداة تلك الليلة في مكة، لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ما يظهر على العبّاد حال الذكر والمناجاة، ولا غابت عنه المخلوقات حال عروجه.

وقد أخطأ بعض السالكين خطأ قريبا من هذا، فظنَّ أنَّ الطريقة الكاملة للعبد ألّا تكون له إرادة أصلا، وأن مرادهم هو ما يقدره الربُّ، ويرون أنَّ هذا هو القيام بالحقيقة العظمى، وقالوا: إنَّ هذا النهج يجمع على المرء قلبه، فلا تتفرق به السبل، لأنَّه لا يرى للمخلوقات أفعالا، ولا يرى إلّا الله وحده، وهؤلاء يتناقضون، فقد يقع من العبد الفسق والفجور والقتل وغير ذلك مما أذن الله في كونه وقدَّره، ولكنَّه كرهه من العبد وأبغضه، فكان لا بدَّ للعبد من أن ينظر إلى الأمور لا من حيث هي مقدَّرة كائنة، بل من حيث كونها مأمورا بها أو منهيا عنها، فيريد العبد ما أمر به، ويقصر عما نُهي عنه، فالمريد ما قدّر عليه، سيقع في المحرمات، ويترك الواجبات، ثم يزعم أنَّه قائم بالحقّ، لأنَّ هذا فعل الله فيه، لا فعله هو، وما دام الأمر كذلك فلا تثريب عليه، وهذا ضلال وبُعْدٌ عن الحق. فليس الحقّ في ألّا يريد العبد شيئا، ولا أن يريد كلّ ما هو واقع وكائن، بل يريد مراد الله، ويحبّ ما أحبّه.

---

(١) سورة آل عمران / ١٩٠ ـ ١٩١.

الفناء الحـقّ:

والفناء كلمة لم يأت بها كتاب ربّنا ولا سنّة نبينا ـصلى الله عليه وسلمـ وهي تحتمل حقّا وباطلا، وقد بيّنا فيما سبق شيئا من الغلط الذي وقع فيه بعض النّاس. وقد غلا آخرون فزعموا أنّ الخالق حلّ في خلقه فلا موجود إلّا الله، فوجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الربّ والعبد، وهذا من أعظم الضلال!! وقد يظنّ ببعض الصالحين الأخيار أنّهم يذهبون هذا المذهب ويتجهون هذا الاتجاه، والأمر ليس كذلك، فإذا قال بعض الأخيار: ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربّا غيره، ولا خالقا ولا مدبّرا غيره، ولا أقصد إلا هو[1].

فالخالق جل وعلا مباين للمخلوقات، وليس في مخلوقاته جلّ وعلا شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وقد اتفق السلف الصالح على وجوب إفراد القديم عن الحادث، وتمييز الخالق عن المخلوق.

فالفناء الذي يريده الصالحون أمثال الشيخ عبد القادر في قوله: «افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله...». وقوله: «فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم والتردد إليهم واليأس مما في أيديهم...» ـ ليس هو الفناء المذموم، بل مراده ألا يكون للإنسان مراد إلا الله، ولا يقصد إلّا ما يحبّه الله ويريده، فلا تكون للعبد إرادة لم يؤمر بها.

هذا مراد الصالحين الذين فقهوا عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا الذي يسميه بعض الناس فناءً هو حقيقة الإسلام، وجوهر الإيمان، وقطب القرآن، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو الذي أسميناه الإخلاص. وتلك المعاني التي سمّوها فناء بعيدة عن جوهر الدين ومراد الله، والقول بها والتوجه إليها، ودعوة الناس إلى تحقيقها؛ سبّب اشكالات وفساداً عانى منه الصالحون طويلا.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٤٩٠، ٤٩١.

٢ـ التجرد عن الميول والنزعات الفطرية

نشأ في صفوف المسلمين اتجاه يزعم أنّ الإخلاص لا يتحقق ولا يتم إلّا إذا محا الإنسان من نفسه النوازع التي خلقها الله فيه، بحيث يقضي عليها قضاء لا رجعة فيه، فلا تدعوه بعد ذلك إلى الدنيا، ولا تطالبه النفس بمتاع، وقد عرّف الجنيد التصوف قائلا: «التصوف تصفية القلب عن موافقة البريّة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية...»[١].

ويقول السهروردي: «لا بدّ للمريد من الخروج من المال والجاه، والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم»[٢].

ويقول الغزالي: «إنّما الوصول إلى الله بالتجرد عن علائق الدنيا، والاكباب بجملة همته على التفكير في الأمور الإلهية»[٣].

وأصحاب هذا الاتجاه بذلوا جهودا هائلة في سبيل الوصول إلى مبتغاهم، ولكنّها كانت جهودا في غير محلّها، ولذلك أتعبتهم كثيرا، ولنضرب مثالا على الجهد المبذول من واقع أصحاب هذا الاتجاه، فقد مكث أبو يزيد أربعين سنة يجاهد كي يقطع نفسه عن علائق الدنيا الظاهرة والباطنة، فإلى أيّ شيء وصل؟ يقول: «كنت ثنتي عشرة سنة حدّاد نفسي، وخمس سنين كنت مرآة قلبي، وستّة أنظر فيما بينها، فإذا في وسطي زنار ظاهر، فعملت في قطعه ثنتي عشرة سنة، ثم نظرت فإذا

---

(١) الاتجاه الأخلاقي ص٤٤.
(٢) عوارف المعارف ص٥٣٣.
(٣) الاتجاه الأخلاقي ص٥٨.

في باطني زنار، فعملت في قطعه خمس سنين، انظر كيف أقطع، فكشف لي، فنظرت الى الخلق، فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات»[1].

إنّ هذا الجهد الذي بذله هذا السالك جهد مضن طويل، وما أظنّه فعل شيئا، ذلك أنَّ الإنسان مفطور على أن يطلب ما تقوم به حياته، من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا رام الإنسان أن يمحو هذه النوازع والغرائز والميول، فإنه يكون قد رام محالا، وسعى فيما لا يمكن تحقيقه. يقول الحارث المحاسبي في هذا: «فإنّما أمر العباد بمجاهدة أهوائهم، ولم يؤمروا ألاّ يكون في النفس غريزة تدعوه إلى شهوة»[2].

ولو كلفنا بذلك لكان تكليفا بما لا يطاق، وقد قرَّر الشاطبي هذه البدهية حيث يقول: «الأوصاف التي طبع عليها الإنسان كالشهوة إلى الطعام والشراب لا يطالب برفعها، ولا بإزالة ما غرز في الجبلة منها، فإنّه من تكليف ما لا يطاق، كما لا يطالب بتحسين ماقبح من خلقة جسمه، ولا تكميل ما نقص منها، فإنّ ذلك غير مقدور للإنسان، ومثل هذا لا يقصد الشارع طلبا له، ولا نهيا عنه»[3].

وقد أدّى العمل على النحو الذي يقتضيه هذا الاتجاه إلى حدوث صراع نفسي في نفوس العاملين به، كانت له آثار سيئة، ذلك أنّهم يحاولون كبت نوازع الفطرة، ويطلبون محوها وإزالتها، وهذا أمر مستحيل، فدفعة الجسد قويّة عنيفة، وهي لا تفتأ تلح على الإنسان، وتضغط عليه ليستجيب لها، فإذا وقع الإنسان بين ضغط الغريزة الدائم الملحاح، وبين ما يعتقد أنَّه سموٌّ وكمال، وهو محاربة هذه الميول وخنقها في أعماق النفوس، فالنتيجة الحتمية أن يدمّر الصراع الثائر بين الدوافع والكوابح نفس صاحبه، ويوهن قواه، ويشتت فكره، ويملأ القلب حيرة وقلقا. ولقد سار في هذا السبيل أقوام من قبل فدمَّروا أنفسهم، فالبوذية ترى أنَّ «سبيل

(١) الغنية ٢ / ١٥٩.
(٢) الرّعاية ص٢٠٨.
(٣) الموافقات ٢ / ٧٦.

السعادة لا يمكن تحققه إلاّ بمحاربة الأهواء والرغبات المادية، وترك اللذائذ ومتع الحياة»[1].

وقد نادى (زينون) مؤسس المدرسة الرواقية المشهورة باسم مدرسة أهل العزيمة والجلد، قبل الميلاد بثلاثة قرون، نادى الناس زاعماً أنَّ «مبدأ الفضيلة هو التحرر من اللذائذ والآلام جميعا، وطالبهم بأن يكافحوا العاطفة الإنسانية، والوجدان الطبيعي، والبلوغ بهما من الجمود والتحجر إلى حدّ الجسارة على الانتحار»[2].

وفي فارس الكسروية ظهر (ماني) داعيا إلى حياة العزوبة، لحسم مادة الشرّ والفساد من العالم، وأعلن أنَّ امتزاج النور بالظلمة شرّ يجب الخلاص منه، فحرّم النكاح استعجالا للفناء[3].

والديانة النصرانية تحوّلت بعد دين المسيح إلى قيود متزمتة، تتشدّد بها الكنيسة ورجال الدّين، حتى حولوها إلى رهبانية تنعزل عن الحياة، وتزعم أنَّ العباد لا يحصلون على ملكوت السماء إلاَّ إذا قهروا نوازع النفوس، وحجتهم في زعمهم هذا أنّ هذه النوازع دنس وقذارة ينبغي أن يتطهر منه الأتقياء الذين يخشون ربَّهم ويرجون لقاءه. وعدَّ علماء النصارى الاستجابة للغريزة الجنسية بالزواج رجسا، ودعوا إلى الانقطاع عن الشهوة المدمّرة التي تنهك الجسد، وقد علمنا من حال الرهبان ما تقشعر لهوله الأبدان، فقد مكث أحدهم خمسين عاما لم يغتسل مرّة واحدة، وآخر مكث في مغارة عشر سنوات لا يرى الشمس، وثالث كان يجلد جسده كل يوم حتى تقرح، أما انقطاعهم في الفيافي والقفار، وبعدهم عن الزواج، وتركهم الدنيا، فذلك أشهر من أن يذكر، وأوضح من أن يكتب فيه!!

فماذا كانت النتيجة لتجربة الأمم من قبلنا التي سلكت هذا السبيل؟ لقد ثارت الفطرة، وتمردت، فدفعت بهؤلاء الذين حاربوها إلى الاستجابة لها بالطرق

---

(١) الاتجاه الأخلاقي ص٥٨.

(٢) الدين لدراز ص١٦.

(٣) ماذا خسر العالم ص٢٤٠.

الملتوية، لقد أصبحت الأديرة في العصور الماضية مباءة للفسق والفجور، وبدل أن يتعفف هؤلاء عن الدنيا، إذا بهم يطلبونها بكلِّ سبيل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وما أخبار صكوك الغفران التي كان الرهبان يجنون منها أموالا طائلة منا ببعيد، ولقد أصبحت الكنيسة في العصور الوسطى سيفا مسلولا على رقاب النصارى، فقد أذاقتهم الكنيسة الذلَّ أشكالا وألوانا، وقد كانت سلطتها تعادل أو تفوق سلطة الدولة، وباسم الدين الذي يزعمون أنه يبغض الدنيا، حازوا الدنيا.

هذا حال الذين زعموا أنَّهم يبغضون الدنيا وأن السبيل الذي يوصل إلى رضوان الله هو ترك الدنيا والهروب منها، أما أتباع هذه المذاهب من عوام الناس، فقد ثاروا على هذه التعاليم، ولم تقف ثورتهم عند حدّ الاعتدال، فقد تجاوزت كلَّ الحدود، ففي فارس قام (مزدك) كردة فعل لتعاليم (ماني) المجحفة، ودعا إلى الاغراق في الشهوات، وأعلن شيوعية المال والنساء.

وحال النصارى اليوم لا يحتاج إلى بيان، فأوروبا وأمريكا اليوم ماخور يعجّ بالفساد، وسوق الرذيلة هي السوق الرائجة، وأصبحت العلامة المميزة لأهل تلك الديار هي السعي وراء الرذيلة واللذة العاجلة، وطأطأت الكنيسة من كبريائها، فأصبحت احتفالات الغناء والرقص التي تخجل منها الفضيلة، تقام في قاعات الكنائس، لأنَّ هذا هو السبيل الذي يجلب الشباب إلى الكنيسة.

---

(١) سورة التوبة / ٣٤.

ولقد أخطأ بعض المسلمين[1] عندما ساروا على درب أولئك الذين فشلوا في تجربتهم، وأضاعوا أعمارهم في غير ما فائدة، أخطأوا عندما لم يعتبروا من التاريخ، ولم يستفيدوا من دروسه، وأخطأوا ثانيا عندما ظنوا أنَّ الإسلام أمرهم بهذا وحثهم عليه.

الإسلام لم يأتنا لننبذ الحياة وراء ظهورنا، ولنطمس الميول التي تدعونا إلى نيل محبوباتها التي خلقها الله، إنَّما جاء ليوضح لنا المنهج الذي نسلكه في نيلنا لهذه التي لا تقوم حياتنا إلاّ بها، ودعانا لاتباع السبيل الذي يحبُّه ويريده لنا، إنَّه لا يريدنا في مسيرتنا إليه أن نتجرد من نوازعنا ونحرم ما خلقه لنا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2]، وكيف تحرم وقد خلقت من أجلنا؟ ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3]. فتناول هذه المحبوبات والمشتهيات من حيث يريد الله هو في ذاته محبوب مرضٍ لله، وهو معين على طاعة الله، فالإطعام من الحلال للنفس ولمن يعوله الإنسان صدقة،

---

(١) أحد الأسباب الرئيسية التي وجهت هؤلاء هذه الوجهة أنَّهم اخطأوا في فهم النصوص الذامّة للدنيا، فظنوا أنَّ المراد هجران الدنيا والبعد عنها وتركها كليًا، وقد سهل علينا فهم هذه المسألة ذلك الصحابي الذي سأل الرسول ﷺ عندما كان الرسول ﷺ يخطب، ومما قاله: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا» فقال ذلك الرجل: «يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت النبيّ ﷺ فقيل للرجل: ما شأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك؟ فرأينا أنّه ينزل عليه. قال فمسح عنه الرحضاء، فقال: «أَيْنَ السَّائِلُ وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَأْتِي الخير بالشر، وإن مما يُنْبِت الربيع يقتل أو يلمّ، إلا آكلة الخضراء، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ. وإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ واليتيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ ـ أو كما قال النبي ﷺ ـ وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيداً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

رواه البخاري في صحيحه (انظر فتح الباري ٣٢٧/٣) (الربيع: الينبوع أو الجدول المتدفق).

فالرسول ﷺ، يقرّر أنَّ الخير الذي جعله الله لعباده لا يأتي بالشر بذاته، ولكن الشر يأتي من الطريقة التي يتناول الإنسان بها المال، وضرب لذلك مثلا بالنبات الذي ينبت على مياه الجداول والعيون، فإنّه خير جاء من خير، ولكنّ البهائم قد تتناول منه، وتأكل بلا توقف، حتى يمتلىء بطنها، وينتفخ، ولا تستطيع له تصريفا، فيقتلها شربها، ويودي بحياتها، وأما البهائم التي تأكل أطيب العشب، وتأكل بمقدار لا يضرّ بها، وتصبر حتى تستطيع أن تصرف ما أكلته، ثم تعود من جديد، فإنَّ العشب لا يكون إلاّ خيرا لها. وجامع المال من غير حلّه، والمنفق وقته وتدبيره في هذا، يجمع ولا يعطي، ويكدس المال في ليله ونهاره، مثله كمثل الحيوان الذي يقتله طعامه، أما الذي يأخذه من حلّه ويعطي حقه، وينفق على من يستحق، فهذا يعود عليه المال بالخير في الدنيا والآخرة.

(٢، ٣) سورة الأعراف / ٣٢.

ففي الحديث الصحيح: «مَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ»(١).

وقد قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- لسعد بن أبي وقاص:(٢) «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِها وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حتى مَا تَجْعَلُ في فِي امْرَأَتِكَ»(٣).

وقد مدح الله الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(٤).

قال ابن كثير في هذه الآية: «هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهر، حتى أنَّ النفقة على الأهل تدخل في ذلك»(٥). وساق حديث سعد بن أبي وقاص، وحديث الإمام أحمد الذي أورده في مسنده: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»، وهو في الصحيحين(٦).

وقد عدّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- إتيان المسلم شهوته صدقة، ففي الحديث: «أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟ إنّ بكُلِّ تَسْبِيْحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيْرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بالمعروف صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ».

قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٣١/٤، ١٣٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٣٠).

(٢) هو سعد بن أبي وقاص، من بني زهرة من قريش، أحد السابقين إلى الإسلام، وهو فاتح العراق، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، ولد قبل الهجرة بـ٢٣ عاما، وتوفي سنة (٥٥هـ). وأحد المبشرة بالجنة

(٣) البخاري في صحيحه (انظر فتح الباري)، (٣٧/١، ١٣٦/١، ١٦٤/٣).

(٤) سورة البقرة / ٢٧٤.

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٥٧٨.

(٦) المصدر السابق.

obeikandl.com

قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَلَيْسَ يَكُونُ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ لَهُ أَجْرٌ»(١).

إنّ الذي يرفضه الإسلام أن يسعى العبد لنيل حظه من الدنيا بهواه من غير الطريق الذي ارتضاه الشارع، كالذي ينال شهوته بالزنى أو اللواط، وكالذي يروي ظمأه بالخمر، وكالذي يملأ بطنه بلحم الخنزير والميتة.

ويرفض الإسلام أن تشغل الدنيا العبد عن طاعة الله، وأن تصبح ميدانا للصراع والتنافس، بحيث تثور الأحقاد، ويصبح همُّ الناس التكالب على الدنيا، والتصارع على متاعها.

أمّا ما يصيب العبد من نسيان للآخرة حال ملابسته للدنيا فذلك أمر لا يمكن أن يتخلص منه الإنسان، وقد عانى من هذه الحال حنظلة الأسيدي(٢) أحد كتاب الوحي، قال: كنّا عند النبيّ ـصلى الله عليه وسلمـ فذكّرنا الجنّة والنّار، حتى كأنّا رأْي عين، فقمت إلى أهلي وولدي، فضحكت، ولعبت، فذكرت الذي كنا فيه، فخرجت، فلقيت أبا بكر، فقلت: نافقتُ يا أبا بكر، فقال: وما ذاك؟ قلت: نكون عند النبيّ ـصلى الله عليه وسلمـ يذكرنا الجنّة والنّار كأنّا رأْي عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا.

فقال أبو بكر: إنّا لنفعل ذلك. فأتيت النبيّ ـصلى الله عليه وسلمـ فذكرت له ذلك، فقال: «يَا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ عِنْدَ أَهْلِيْكُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافحتكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي الطَّرِيقِ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَة وَسَاعَة»(٣).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه (انظر الترغيب والترهيب ٢٣٦/٣)، وعزاه في صحيح الجامع (٣٥٦/٢)، إلى أحمد في مسنده بالاضافة إلى مسلم وابن ماجه.

(٢) هو حنظلةُ بن الربيع بن صيفي، كان أحد كتاب الوحي، شهد القادسية، واعتزل الفتنة، توفي سنة (٤٥هـ).
راجع: (تهذيب التهذيب ٣ / ٦٠)، (والكاشف ٢٦٠/١).

(٣) رواه مسلم والترمذي (جامع الأصول ٢٢٠/١)، وعزاه في كنزالعمال (٣٥٥/١)، إلى أبي نعيم والطبراني.

محاربة الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ لهذا الاتجاه:

لقد قاوم الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ هذا الاتجاه في أفضل صوره وأعلى مراتبه، فقد حاول بعض الصحابة أن يتبتل، وآخرون حاولوا الهروب إلى الجبال كي يعبدوا الله، ولكنَّ الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ رفض ذلك رفضاً كليّاً، وعنّف الذين أرادوه، وبيّن لهم ما فيه من تضييع لما هو أفضل منه، وبيّن أنّه مناف لسنته وطريقته، وقد جمع ابن الأثير[1] هذه الأحاديث تحت باب: «الاقتصاد والاقتصار في الأعمال»، وسأسوق طرفا منها يتضح به المقصود إن شاء الله تعالى.

فقد ذكر أنَّ البخاريَّ ومسلماً رويا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه «جاء ثلاثة رهْطٍ[2] إلى بيوتِ أزواجِ النبيّ ـصَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمـ يسألون عن عِبادةِ النَّبيِّ ـصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَـ فَلَمّا أُخْبِروا، كَأَنَّهم تقالُّوها[3]. قالوا: فأين نحن من رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر؟ إقال أحدهم: أمَّا أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء، ولا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ إليهم، فقال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عِنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي»[4].

ونقل عن أبي داود في سننه أنّه أخرج عن عائشة قالت: «بعث رسول الله ـ

---

(١) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، المحدّث اللغوي الأصولي ولد في جزيرة ابن عمر سنة (٥٤٤هـ)، ونشأ بها، ثمَّ انتقل إلى الموصل وتوفي بها سنة (٦٠٦هـ)، من كتبه المطبوعة (جامع الأصول في أحاديث الرسول).
راجع: (وفيات الأعيان ١ / ٤٤١)، (بغية الوعاة ٢ / ٢٧٤)، (شذرات الذهب ٥ / ٢٢).

(٢) الرَّهط: ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة (مختار الصحاح)

(٣) تقالُّوها: التقال: تفاعل من القلة، كأنّهم استقلّوا ذلك لأنفسهم من الفعل، فأرادوا أن يكثروا منه.

(٤) جامع الأصول ٨/٢٠٠.

سلى الله عليه وسلم- إلى عثمان بن مظعون[1]: أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي؟ فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَارَسُولَ اللهِ، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُب، قَالَ: فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكَحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ»[2].

وأنكر الرسول -صلى الله عليه وسلم- على عبد الله بن عمرو بن العاص تشدّده في العبادة، فقد أُخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنَّ عبد الله يقول: «والله لأصومنَّ النَّهار، ولأقومنَّ الليل ما عشت» فأنكر عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- مقالته، وقال له: «فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ» وأرشده إلى طريقة معيّنة في الصيام والقيام. والحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي"[3].

وحذّر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمته من أن تسلك سبيل الأمم من قبلها فقال: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَيُشَدَّدُ عَلَيْكُمْ، وإِنَّ قوما شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فشُدِّدَ عَلَيْهِم، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوامِعِ وَالدِّيَارِ، رَهْبَانِيةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ»رواه أبو داود[4].

فالرسول -صلى الله عليه وسلم- قد بيّن لأمته أنَّ هذا منهج خاطىء، وأنَّ السبيل الذي ينجي عند الله هو القيام بهذا الدّين، والالتزام بتعاليمه، فيما يتعلق بحقوق الله أو النفس أو الأهل. . . وليست القضيّة التي جاء بها الإسلام هي الهروب من الحياة كي ننال الجنّة والنعيم الأخروي، الإسلام يريدنا أن نسخّر الحياة باسم الإسلام وبنهجه، يريد الإنسان المسلم أن يكون طاقة قويّة تندفع إلى الحركة

---

(١) هو عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي، صحابي متقدّم الإسلام، من حكماء العرب في الجاهلية، حرّم الخمر على نفسه قبل أن يأتي الإسلام، أول من مات بالمدينة من المهاجرين وذلك في السنة الثانية من الهجرة. راجع: (الاستيعاب ١٠٥٣/٤)، (الأعلام ٣٧٨/٤).

(٢) جامع الأصول ١ / ٢٠٢.

(٣) جامع الأصول ٢٠٣/١.

(٤) جامع الأصول (٢١٦/١)، وفي الكتاب أحاديث كثيرة.

والعمل والكفاح في الحياة لبناء الحضارة الإنسانية الخيّرة، ويسدّ الثغرات التي تظهر في العالم المادي نتيجة للدوافع الحيوانية التي تولّد الصراع الحادّ في أعماق نفس الإنسان، والتي تظهر على شكل مظاهر كثيرة متنوعة من الفساد العام الذي يصيب الفرد والجماعة، فيتحول المجتمع الإنساني إلى مجتمع يسود فيه منطق الأقوياء الجشعين والناهبين الظالمين والمفسدين الضالين.

إنّ النظام الروحي في الإسلام يحافظ على الحضارة الإنسانية من أن تتحول إلى أداة شقاء، وبؤرة مرض، كما حدث في الحضارة الحديثة، عندما يتحول الإنسان في ظلها إلى آلة جامدة، ثمَّ إلى مجموعة عقد مرضية، ثمَّ إلى انحراف خطير، ولّد الثغرة الكبرى والفراغ الهائل الذي يريد المربون معالجته، ولكن بدون جدوى؛ ذلك لأنّهم عندما جزؤوا الإنسان، وعالجوه مقطع الأوصال، لم يصيبوا كبد الحقيقة، ولم يدركوا حقيقته الكبرى من حيث هو كائن ثنائي التركيب، مركب من المادة والروح، وليس نموذجا من النماذج الحيوانية الكثيرة المنتشرة على الكرة الأرضية.

سرّ المسألة:

وسرّ المسألة أنَّ أصحاب هذا الاتجاه من المسلمين ظنّوا في بداية الأمر أنَّ القصد الذي يتطلع صاحبه إلى ثمرات الأعمال ونتائجها وحظوظه منها ـ مزاحم للقصد المتجه إلى الله فيكون ذلك تشريكا يجب أن ننزه عنه نيّاتنا، ومن هنا اندفعوا جاهدين كي ينتزعوا من أعماق نفوسهم تلك الخواطر والمقاصد التي تتطلع إلى محبوباتها من الأعمال المشروعة، فلمّا وجدوا صعوبة في الأمر تحول دون تحقيق المراد رموا الدنيا وراء ظهورهم، وقصروا تطلعاتهم على الأعمال التي أمروا بتحقيقها، وجاهدوا النفوس كي لا يبقى لهم مراد غير ذلك المراد.

ولا يفوتنا ـ ونحن نبحث في أصل المسألة ـ أن نقرر ما قرره المحققون من العلماء من أنَّ الشارع قصد في وضعه للشريعة مصالح العباد في العاجل والآجل،

وقد دلَّ على هذا استقراء العلماء للشريعة في أعظم مصدرين: الكتاب والسنّة، وقد دلَّ استقراؤهم على أنَّ هذا الأمر (القول بأن الشريعة وضعت لمصالح العباد) مستمرّ في جميع تفاصيل الشريعة. وإن الاستدلال مفيد للعلم لكثرة الأدلَّة الدالة على ذلك[1]، فإذا كان هذا مقرَّرا، فكيف يجوز أن نمنع العابد من أن يتطلع إلى المصالح التي قصدها الشارع من أعمال المكلفين؟

لو ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى القول بمنع العبّاد من النظر والتطلع إلى مصالح ونتائج لا يرتضي الشارع أن تجعل الأعمال المتعبد بها وسيلة إليها- لكان هذا القول مرضيا ومقبولا، لأنَّ المكلف مطالب بألَّا يتوجه ولا يقصد إلّا ما قصده الشارع من المصالح، أما أن نرفض جواز التطلع إلى الخير المترتب على أعمالنا المتعبد بها مع أنَّ الشارع ارتضاه وقصده، فهذا في غاية الصعوبة.

ونستطيع هنا أن نتقدم خطوة فنقول:إن قصد هذه الحظوظ من الأعمال المتعبد بها مقصودة للشارع ومطلوبة من المكلف لأنّها تناسب حاله، وعمله على هذا النحو يصلح أمره، ويحفظ عليه دنياه وأخراه. ويحسن أن نقرّر بوضوح أنَّ التطلع إلى ثمرات الأعمال المتعبد بها -سواء أكانت عبادات أصلا أم عاديات متعبد بها- لا يضاد الإخلاص ولا يناقضه، ما دمنا نقصد مقاصد الشارع المترتبة على الأعمال.

ولقد أحدثت هذه النظرية شرخا في نفوس المسلمين، لأنَّ هؤلاء حاروا بين هذه النظرية التي تدعوهم إلى المثالية والترفع في مقاصدهم وبين واقع حالهم، إذ وجدوا أنفسهم غير مطيقين للانسلاخ من رغباتهم، وصرف أنفسهم عن النظر إلى نتائج الأعمال.

كيف نريد من الذي يريد طهارة- وضوءاً أو غسلا -ألّا يقصد مع قصد التقرب إلى الله تعالى- التنظف والتطيب! وإذا كان الجوّ حارا كيف نريد من هذا الإنسان

(١) الموافقات ٢/٣، ٤.

ألّا يقصد التبرد وانعاش نفسه! فإن قصد هذا القصد حكمنا على عمله بالبطلان والفساد؟!وهب هذا الإنسان زاغم نفسه كي تنصرف عما تحسّه وتطلبه، فكيف السبيل إلى أن يقصر نفسه على مجرد الامتثال للفعل!

ومن ذا الذي يتذوق سرور العبادة ولذتها ثم يطيق ألّا يقصد هذا النعيم؟! وهل إذا قصدنا من وراء إخراج الزكاة المتقرب بها سدّ خلّة الفقير وصلة الأرحام، وتقديم الخير لبني الإنسان، نكون أقمنا مقاصد مضادة للإخلاص؟!.

ألم يأمرنا الله بأن نقاتل في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا؟!

ألم يقرّنا الله على أن نحصل بالجهاد أمرا نحبّه ونرضاه:﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[1]!

وهب أننا استطعنا أن نصرف قصدنا في أمور العبادات عن النظر إلى ثمرات الأعمال في الدنيا، فهل نطيق ذلك في الأمور العادية اذا قصدنا التعبد بها! فالزواج والطعام والشراب واللباس إذا قصدت التقرب بها إلى الله تعالى بأن آخذها من الطريق التي شرعها، وأبتعد عما حرم منها، وأقصد الاستعانة بها على طاعة الله، أأستطيع أن أصرف النظر عن الثمرات الناتجة عنها والتي تحبها النفس وتتطلبها منها؟!

إن العاملين بأعمال دنيوية من المسلمين: أطباء ومهندسين وباحثين، يستطيعون أن يجعلوا أعمالهم قربات عند إحداث نيّة صالحة حين القيام بهذه الأعمال، وهذا لا يلزمهم ألا يقصدوا حظوظهم من وراء هذه الأعمال.

لا يجوز أن يحتجّ علينا في هذا بأنّ الشارع لم يرتض أن يقاتل المسلم شجاعة أو حميّة، بل يجب أن يقصر قصده على القتال كي تكون كلمة الله هي العليا،

(١) سورة الصف/١٣.

وبدون ذلك لا يكون جهاده في سبيل الله ـ لأننا قررنا من قبل أنَّ الثمرات والنتائج التي نجيز التطلع إليها هي التي أقرها الشارع ورضيها، والقتال بقصد هذه الأمور لم يرتضه الشارع.

نعم نتائج الأعمال المطلوبة والمقصودة للشارع قد تخفى علينا وقد لا ندركها خاصة في العبادات، ومن هنا قد نظن أمرا ما مقصودا للشارع فنطلبه مع أنَّه ـ في واقع الأمر ـ ليس بمطلوب ولا مقصود له.

وهذه نظرة وجيهة يجب أن يراعيها العابد، فلا يقصد إلاّ المصالح التي نصَّ الشارع عليها، والمصالح التي استنبطناها من النصوص، لا تلك المصالح التي ارتضيناها بأهوائنا.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بأنَّ الشريعة لم توضع لطائفة من النّاس وإنَّما هي شريعة عامة، جعلت لعموم النَّاس، والنَّاس أصناف شتى، ولذلك رغبهم في العمل بالشريعة بمرغبات مختلفة، كي تصبح مؤثرات ودواعي تحركهم إلى العمل وتدفعهم إليه. لننظر في هذه المرغبات التي يجلّيها نوح لقومه كي يحققوا مراد الله ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾[1]. ولننظر إلى موعود الله لهذه الأمة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[2]. ولننظر إلى وعد الله للأتقياء: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[3]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[4].

---

(١) سورة نوح/١٠ ـ ١٢.
(٢) سورة النور/٥٥.
(٣) سورة الطلاق/٢ ـ ٣.
(٤) سورة الطلاق/٤.

هذه الآيات وأمثالها كثير تستثير في النفس الإنسانية آمالها وتطلعاتها، وتحرك جذوتها فتندفع إلى تحقيق ما يطلب منها، ولكن بإرادة صادقة وعزيمة قويّة، تطلب في ذلك خيرها من حيث يريد الله تعالى، وهذه ـوايم اللهـ العبودية الحقّة التي يريدها الله من عباده، وحسبنا أنَّ الله أثنى على الذين يطلبون منه خيري الدنيا والآخرة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1]. نعم لو قالوا كما قال الشاطبي[2]: بأنَّ قصر النظر على الأعمال وعدم التطلع إلى النتائج أقرب إلى الإخلاص والتفويض والتوكل على الله ـ لكان قولهم صوابا.

(١) سورة البقرة/٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) الموافقات ١ / ١٤٧.

obeikandl.com

٣- قصــد النعيــم الأخروي

وقد بالغ بعض العلماء والعبّاد في تجريد القصد إلى الله والتقرب إليه، حتى عدّوا طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين قادحا في الإخلاص، وهم وإن لم يقولوا ببطلان الأعمال التي قصد أصحابها الثواب الأخروي- إلاّ أنَّهم كرّهوا للنّاس العمل على هذا النحو، ووصفوا العامل رجاء حظّ أخروي بالرعونة، ووسموه بأجير السوء، مما جعل قلوب كثير من الذين يقرؤون كلامهم تحاذر أن تقصد هذا القصد، وتجاهد في ألاّ تنظر إلى ثواب الأعمال الأخروية. لا خوفا من النار ولا طمعا في الجنة وإنما طلب الرضى

وقد تناقل العلماء قول رويم[1] في تعريف الإخلاص: «الإخلاص ألاّ يريد على عمله عوضا في الدارين، ولا حظًّا من الملكين»[2].

ووصفت رابعة العدويّة[3] الذي يعبد رجاء الجنّة وخوف النّار بأنّه أجير سوء حيث تقول: «ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبّا في جنّته، فأكون كأجير السوء، بل عبدته حبّا له وشوقا إليه»[4].

ووصف الغزالي العاملين على هذا النحو بالبَلَه، بالاضافة إلى الوصف الذي وصفتهم به رابعة العدوية: «العامل لأجل الجنّة عامل لبطنه أو فرجه، كالأجير

(١) هو رويم بن أحمد بن يزيد، صوفي مشهور، من مشايخ بغداد توفي سنة (٣٣٠هـ).
راجع : (الأعلام ٦٥/٣).

(٢) المجموع ١ / ٣٠.

(٣) هي رابعة بنت إسماعيل العدويّة، عابدة ناسكة من أهل البصرة، توفيت ببيت المقدس سنة (١٣٥هـ).
راجع : (وفيات الأعيان ٢٨٥/٢).

(٤) إحياء علوم الدين ٣١٠/٤.

obeikandi.com

السوء ـ ودرجته درجة البله[1]، وإنّه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنّة البله، وأما عبادة ذوي الألباب فإنّها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبّا لجماله وجلاله. . . وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنّة. .»[2].

وقرر شيخ الإسلام إسماعيل الهروي أنَّ الرجا أضعف منازل المريدين ووسم العاملين على الرجا بالرعونة في مذهب المتصوفة: «الرجا أضعف منازل المريدين، لأنَّه معارضة من وجه واعتراض من وجه، وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة»[3].

وإذا نظرنا نظرة عجلى في كتاب ربِّنا، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وفي سيرة الأنبياء والمرسلين والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، فإنّنا نعلم علما قاطعا أنَّ ما ذهب إليه هؤلاء بعيد عن الصواب، مخالف لما جاءت به نصوص السنَّة والكتاب.

لقد وصف الله سادات المؤمنين بأنَّهم كانوا يعبدون الله خائفين راجين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[4].

وعباد الرحمن الذين نسبهم إلى نفسه وأثنى عليهم في آخر سورة الفرقان يقولون: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[5].

والذين وسمهم بأنَّهم أولو الألباب يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا،

(١) الأبله في الأصل: الرجل الأحمق الذي لا عقل له، ويطلق ويراد به الذي غلب عليه سلامة الصدر وحسن الظنّ بالنّاس، لأنَّهم أغفلوا دنياهم، وأقبلوا على آخرتهم (لسان العرب ٢٦٣/١).

(٢) إحياء علوم الدين ٤ / ٣٧٥.

(٣) مدارج السالكين ٣٧/٢.

(٤) سورة الإسراء: ٥٧.

(٥) سورة الفرقان: ٦٥.

وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرار، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلى رُسُلِكَ، وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1].

وخليل الرحمن إبراهيم يقول في دعائه: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[2].

وأثنى الله على نبيّه زكريا ويحيى، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[3].

وجاء صحابي للرّسول ـصلى الله عليه وسلمـ يقول: «أما إنّي أسأل الله الجنّة، وأعوذ به من النّار، لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي ـصلى الله عليه وسلمـ «حَوْلَهَا نُدَنْدِنْ»[4].

وقد وصف الله نعيم الجنّة، ثم حثَّ على التنافس والتسابق في طلبه، فقال: ﴿وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[5].

وما أكثر ما بيّن القرآن الثواب أو العذاب الأخروي لمن قام بعمل ما، كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[6].

وقال في أكلة مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمَاً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[7].

وقال الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ في حقّ صائم رمضان: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ

---

(١) سورة آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤.
(٢) سورة الشعراء: ٨٥ ـ ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء: ٩٠.
(٤) رواه أبو داود كتاب الصلاة ١٢٤، وابن ماجه كتاب الإقامة ٢٦، وأحمد في مسنده (٤٧٤/٣، ٧٤/٥).
(٥) سورة المطففين: ٢٦.
(٦) سورة الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨.
(٧) سورة النساء: ١٠.

إيماناً واحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1].

قال ابن حجر: «والمراد بالإيمان الاعتقاد بحقّ فرضية الصوم، وبالاحتساب طلب الثواب من الله تعالى، وقال الخطابي: احتسابا أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه ومستطيل لأيامه»[2].

وقال فيمن تبع الجنازة: «مَنْ تَبِعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَاناً واحْتِسَاباً وَكَانَ مَعَهَا حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، وَيَفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّه يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كلُّ قِيراطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلّى عَلَيْها، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّه يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ مِنَ الأَجْرِ»[3].

ولو ذهبنا نورد النصوص المرغّبة والمرهّبة من الكتاب والسنة لطال القول، وقد ألّف الحافظ المنذري[4] كتابه الترغيب والترهيب في ثلاث مجلدات، وحسبنا أنَّ الله قد عدّ القرآن مبشرا ونذيرا: ﴿قَيِّمَاً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾[5].

ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[6].

فكيف بعد أن ثبت أن دين الله كلّه دعوة إلى العباد كي يطلبوا الجنّة، ويهربوا من النّار، وأنَّ سادة المؤمنين من الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء كلّهم

---

(١) رواه البخاري (الفتح ١١٥/٤)، ورواه النسائي (١٥٤/٤)، وعزاه في صحيح الجامع إلى المسند وأبي نعيم (صحيح الجامع ٣٠٩/٥).

(٢) فتح الباري (١١٥/٤).

(٣) رواه البخاري والنسائي (صحيح الجامع ٢٦٧/٥).

(٤) هو عبد العظيم بن عبد القويّ بن عبد الله، شيخ الإسلام زكي الدّين أبو محمد المنذري الشاميّ، ثمّ المصريّ، عديم النظير في معرفة الحديث على اختلاف فنونه، كان إماما حجّة ثبتا ورعا متحريا. ألّف (الترغيب والترهيب)، واختصر (صحيح مسلم)، و(سنن أبي داود)، توفي سنة (٦٥٦هـ).

(٥) سورة الكهف: ٢

(٦) سورة الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

يطلبون الجنّة، ويخافون النّار- يستقيم قول من زعم أنّ الذي يعبد الله طلبا للجنّة، وخوفا من النّار كأجير السوء، أو أن العمل على ذلك من الرعونة، وأنّه أضعف مراتب المريدين، وكيف يجوز للغزالي- غفر الله له- أن يقول: «العامل لأجل الجنّة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء ودرجته درجة البله».

لا والله، بل هؤلاء هم الأخيار الأبرار الأطهار الذين سماهم الله بأولي الألباب، وهم الذين تلقوا علومهم عن الله، وفقهوا عنه، وشمّروا لما دعاهم إليه، فهم أسعد الناس وخير الناس، وحاشاهم أن يكونوا كأجراء السوء، أو أهل رعونة وضعف.

والذين قالوا هذه المقالة أثّروا في المسلمين أثرا سيئا، فإنّ القلب إذا خلا من ملاحظة الجنّة والنّار، ورجاء هذه، والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهى باعثه، وكلّما كان أشدّ طلبا للجنّة وعملا لها، كان الباعث له أقوى، والهمّة أشدّ، والسعي أتمّ. ولعلّ من أخطاء هذا الفريق زعمه أنّ الجنّة لا يدخل في مسماها إلّا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، وأنّ طالب الله وطالب رؤيته والنظر إليه ينبغي أن يطلب مطلوبا غير الجنّة، كما قال أحدهم عندما سمع قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[1]، قال: فأين من يريد الله[2]؟

وقال الآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[3]. فقال: إذا كانت النفوس والأموال بالجنّة، فأين النظر إليه؟[4].

وظنوا أنّ مسمى النّار لا يدخل فيه إلّا التعذيب بالمخلوقات فحسب، وقد عبّرت رابعة العدويّة عن هذا الفهم بقولها:[5]

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢.
(٢) مجموع الفتاوى ١٠ / ٦٣.
(٣) سورة التوبة: ١١١.
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٦٣).
(٥) العبادة في الإسلام ص١١٠.

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ خَوفِ نَارٍ وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلا
أَوْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الجِنَانَ فَيَحْظَوْا بِنَعِيمٍ وَيَشْرَبُوا سَلْسَبِيلا
لَيْسَ لي فِي الجِنَانِ والنَّارِ حَظٌّ أَنَا لَا أَبْتَغِي بِحِبي بَدِيلا

وهذا ـ كما يقول ابن تيمية ـ قصور وتقصير منهم عن فهم مسمّى الجنّة والنّار، فكلّ ما أعدّه الله لأوليائه فهو من الجنّة، والنظر إليه ـ تعالى ـ هو من الجنّة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنّة، ويعوذ به من النّار.

فالجنّة دار الرحمة الخالصة، والنّار دار العذاب الخالص، وأعظم نعيم يناله أهل الجنّة وأعلاه النظر إلى وجهه تعالى، كما في صحيح مسلم، أنّ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة نادى مناد: يا أهل الجنّة إنّ لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا؟ ألم يثقل موازيننا، ويدخلنا الجنّة، وينجينا من النّار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا أحبَّ إليهم من النظر إليه»[1].

وأعظم عذاب في النار هو حرمان أهل النّار من هذا النّعيم العظيم: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾[2].

(١) رواه مسلم في صحيحه (مشكاة المصابيح ٩٧/٣).
(٢) سورة المطففين: ١٥.

تنوّع المقاصد الخيّرة

اتضح مما مضى أن المقصود الذي يجب أن يتوجه إليه العبد هو الله وحده، وأنَّ هذا هو الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه.

إلاّ أنَّ المقاصد تتنوع فيما بينها، ذلك أنَّ العباد يقصدون ربَّهم من جوانب مختلفة، فمنهم الذي يعبده تعظيما له وتوقيرا، ومنهم الذي يقصد الدخول في طاعته وعبادته، ومنهم الذي يطلب رضوانه ورضاه، ومنهم الذي يقصد الأنس به، والتلذذ بطاعته وعبادته، ومنهم من يرجو التنعم برؤيته في يوم لقياه، ومنهم من يطلب ثوابه من غير أن يستشعر ثوابا معينا، ومنهم من يطلب ثوابا معينا، ومنهم من يخاف عقابه من حيث الجملة غير ناظر إلى عقاب معين، ومنهم من يخشى عقابا معينا.

وتنوع المقاصد باب واسع، والعبد قد يقصد هذا مرّة، وهذا مرة، وقد يقصد أكثر من واحد من هذه المقاصد، وكلّها تنتهي إلى غاية واحدة، وتعني في النهاية شيئا واحدا، أنّ العبد يريد الله سبحانه، ولا يريد سواه، وكلّ ذلك محقق للإخلاص. وأصحاب هذه المقاصد على الصراط المستقيم، وعلى الهدى والصواب، وإن كان العبد لا ينبغي أن يخلي قصده من الحبّ والخوف، فإنَّ قوام العبادة بهما، ومدارها عليهما.

obeikandl.com

الفصل الثالث

المقاصد السيئة

obeikandl.com

obeikandl.com

المقاصد السيئة

من ابتغى بالعبادة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة

المقاصد الخيرة هي التي يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى، أو يقصد المصالح التي اجاز الشارع للمكلف قصدها.

فإذا ابتغى المكلف بالعبادة غير ما شرعت العبادة له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في هذه الحالة غير صحيح، والأدلة على ذلك كثيرة[1]:

أحدها: أنَّ المكلَّف إذا قصد غير ما قصده الشارع فقد جعل ما قصده الشارع مهمل الاعتبار، وما أهمل الشارع مقصودا معتبرا، وذلك مضادّ للشريعة.

الثاني: أن هذا القاصد غير ما قصده الشارع مشاقّ للرسول متبع غير سبيل المؤمنين، وقد ذمَّ الله هذا الصنف من الناس: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾[2].

الثالث: أنَّ هذا القصد يجعل العبادة المؤدّاة كأن لم تؤدّ، ولم تفعل، فإنَّ الشارع يريد أن تؤدَّى العبادة بقصد معين، فإذا لم يأت به المكلّف صار كالفاعل لغير ما أمر به، والتارك لما أمر به.

الرابع: أنَّ العبادة شرعت وسيلة إلى مصالح أرادها الشارع، ورضيها، فجعلها هذا العابد وسائل لمصالحه هو، لا للمصالح التي أرادها الشارع.

---

(١) الموافقات ٢ / ٢٤٤ - ٢٤٦.

(٢) سورة النساء: ١١٥.

الخامس : أنَّ هذا القصد إستهزاء بآيات الله، لأنَّ من آياته أحكامه التي شرعها، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً﴾[1]، وهذا الذي حذَّر الله منه متحقق فيمن قصد بالعبادة غير ما شرعت له، وقد ذمّ الله المنافقين المستهزئين بالله وآياته ورسوله : ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

وللمسألة أمثلة كثيرة كإظهار كلمة التوحيد قصدا لاحراز الدم والمال لا للإقرار للواحد الحقّ بالوحدانية، والصلاة لينظر إليه بعين الصلاح، والذبح لغير الله، والهجرة لينال دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، والجهاد للعصبية، أو لينال شرف الذكر في الدنيا.

وسنتناول في هذا الفصل المقاصد السيئة التي تبتغي من العبادة غير ما شرعت له.

---

(١) سورة البقرة : ٢٣١.

(٢) سورة التوبة : ٦٥.

أولا ـ اتبـــاع الهوى

أكثر الناس تحركهم أهواؤ هم، فيكون الهوى هو الدافع والباعث على العمل، وفي الوقت نفسه هو الغاية التي يسعى صاحب الهوى إلى تحقيقها، وبذلك يكون الهوى هو الإله الذي يعبده، ويطوف حوله، قال ابن عباس: «الهوى إله معبود»، ثم قرأ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1][2] فصاحب الهوى متعبِّد لهواه حباً وخوفا، ورجاء ورضا، وسخطا، وتعظيما، وذلاً، إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، فهواه آثر عنده، وأحبّ إليه من رضا مولاه. فالهوى على ذلك مضادّ للإخلاص ومناف له، ولا يجتمع في قلب إخلاص وهوى، فالمخلص متوجه إلى الله بكليَّته، وصاحب الهوى يدور حول نفسه، كما يدور الحمار برحاه.

والهوى عميق الجذور في النفس الإنسانية، ولذلك فإنَّه إذا تمكَّن من الإنسان سيطر عليه سيطرة المقاتل على أسيره، وقد ضرب الله مثلا للذي يتبع الهوى يعجز البيان عن أن يأتي بمثله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]. والسبب في قوة الهوى وسيطرته على النفس، أنَّ الشهوات التي يهواها العبد مخلوطة بكيانه، وهو يشعر باللذة الحاضرة عندما ينال هواه، وما تشتهيه نفسه، فاللذَّة التي يعرف

(١) سورة الفرقان ٤٣.
(٢) عيون الأخبار ٣٧/١.
(٣) سورة الأعراف ١٧٥ ـ ١٧٦.

طعمها، تدفعه دائماً إلى تحصيل المشتهى، والأمور المشتهاة تتراءى للإنسان دائماً، فهي وإن كانت في الخارج إلاّ أنّها تتصور للعبد وتقوم في نفسه، وقد تستولي على قلبه كما قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾[1]، وعند ذلك لايكون له همّ إلاّ أن يطلب تلك الصورة التي استقرت في نفسه، وسيطرت عليه، وفي سبيل تحصيل ما يهواه يبذل ماله ونفسه. ولقد حمل الهوى أصحابه على الكفر بالله ومعاداة رسله، بل حملهم على قتل الأنبياء والمرسلين: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً، كُلَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾[2]، وقال موبخاً لهم في سورة أخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ، وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[3].

وقد حملهم الهوى على أن كفروا بمحمد ـصلى الله عليه وسلمـ مع أنّهم كانوا يتوعدون العرب ببعثته: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4]، لقد كانوا يعرفون أنّ محمدا ـصلى الله عليه وسلمـ هو النبيّ المنتظر، فلمّا جاء من غير الطائفة التي يهوونها لم ينقادوا له، ولم يؤمنوا به اتباعا للهوى، وحسدا أن يكون هذا الفضل في غيرهم وأخذوا يعتذرون بالمعاذير الكاذبة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى، أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، قَالُوا

(١) سورة المؤمنون: ٦٣.
(٢) سورة المائدة: ٧٠.
(٣) سورة البقرة: ٨٧.
(٤) سورة البقرة: ٨٩.

سِحْرَانِ تَظَاهَرَا، وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ، قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ. . .﴾[1].

يقول الشاطبي في هذا الموضوع: «مخالفة ما تهوى الأنفس شاقّ عليها، وصعب خروجها عنه، ولذلك بلغ الهوى بأهله مبالغ لا يبلغها غيرهم، وكفى شاهدا على ذلك حال المحبّين، وحال من بعث إليهم رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم. ممّن صمَّم على ما هو عليه، حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال، ولم يرضوا بمخالفة الهوى، حتى قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[2]، وقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾[3]، وقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[4][5]

واتباع النّاس لأهوائهم أفسد دنياهم، ذلك أنَّ أصحاب النفوذ والسلطان يقضون عمرهم في الجري وراء الملذّات والشهوات، ويجاهدون في حيازة الدنيا، فيؤدي ذلك إلى ظلم الآخرين وحرمانهم من أبسط حقوقهم، فيموت الفريق الأول ويهلك بسبب التخمة، ويهلك الفريق الآخر، لأنّه لا يجد ما يسدُّ به رمقه. يقول كاتب معاصر[6]، مبيناً أثر الإغراق في اتباع الشهوات في بعض الدول المتمدنة في التاريخ: «استحوذ على النّاس في الدولتين: الفارسيّة والرومية حياة الترف

(١) سورة القصص: ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) سورة الفرقان: ٤٣.
(٣) سورة النجم: ٢٣.
(٤) سورة محمد: ١٤.
(٥) الموافقات ٢/١٠٩.
(٦) هو أبو الحسن الندوي.

والبذخ، وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة، وغرقوا فيه إلى أذقانهم، فكان ملوك الفرس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غيِّهم، ودققوا في مرافق المعيشة، وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقا عظيما جدّا، فكان لكسرى أبرويز اثنا عشر ألف امرأة وخمسون ألف جواد، وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة، ومظاهر الثروة والنعمة، وقصره مثال في الأبهة والغنى»[1].

وينقل عن بعض المؤرخين أنَّه: «لم يرو في التاريخ أنَّ ملكا بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كلِّ البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى، ولما خرجوا من العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يدرى ما قيمته»[2].

وينقل عن الطبري: «أنَّ العرب وجدوا قبابا تركيَّة مملوءة سلالا مختمة بالرصاص، قال العرب: فما حسبناها إلّا طعاما، فإذا هي آنية الذهب والفضة»[3].

ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذي أصابه المسلمون يوم المدائن، فقالوا: «هو ستون ذراعا في ستين ذراعاً، بساط واحد مقدار الجريب[4]، أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره جواهر، وورقه بحرير وماء الذهب، فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير، وفي حافاته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك، وكانوا يعدّونه للشتاء، إذا ذهبت الرياحين،

---

(١) ماذا خسر العالم (ص٧١).

(٢) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس طبع ١٨٩٨ ص٩٠ (ماذا خسر العالم ص٧٢).

(٣) تاريخ الطبري (ماذا خسر العالم ص٧٢).

(٤) الجريب من الأرض: مقدار معلوم الذراع والمساحة (لسان العرب ٤٢٩/١).

فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، فكأنَّهم في رياض»[1].

ويذكر صاحب العقد الفريد أنَّ الفرس قسموا دهرهم كلَّه هذا التقسيم: قالوا: يوم المطر للشراب، ويوم الريح للنوم، ويوم الدجن للصيد، ويوم الصحو للجلوس، وما فعلوا ذلك إلاَّ اتباعا لأهوائهم البهيمية، وايثارا للراحة[2].

تعريف الهوى وبيان نتائجه وآثاره:

الهوى مقصور: «مصدر هوى يهوى هوى، أي: أحبَّ، وهوى النفس إرادتها، قال اللغويون: الهوى محبّة الإنسان الشيء، وغلبته على قلبه..»[3]، ومتى تكلّم بالهوى مطلقا لم يكن إلا مذموما، حتى ينعت بما يخرجه عن معناه، كقولهم: «هوى حسن، وهوى موافق للصواب»[4].

والنفوس لها محبوبات تهواها، وتعشقها، وتطلبها، قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[5].

وقد أودع الله النفوس حبَّ هذه الأمور لحكمة بالغة، كي ينبعث الإنسان إلى تحصيل ما فيه صلاح لبدنه وبقاء نسله.

فايداع النفوس حبّ هذه الأمور ليس مذموما، وإنما المذموم هو طلب هذه الأمور من غير الطريق المشروع، أو الانشغال بها عن طاعة الله، يقول الغزالي رحمه الله: «فإن قلت: فهل من فرق بين الهوى والشهوة؟ قلنا: لا حجر في العبارات، ولكن نعني بالهوى: المذموم من جملة الشهوات دون المحمود،

---

(١) تاريخ الطبري (١٧٨/٤)، (ماذا خسر العالم ص٧٢).

(٢) العقد الفريد (٢١٨/٦).

(٣) وعلماء الشريعة لا يخالفون اللغويين فيما ذهبوا إليه، يقول الجرجاني: الهوى ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع. التعريفات ص٢٢٩.

(٤) لسان العرب ٨٤٩/٣.

(٥) سورة آل عمران: ١٤.

والمحمود من فعل الله تعالى، وهي قوة جعلت في الإنسان لتبعث بها النفس لنيل ما فيه صلاح إما بابقاء بدنه، أو بإبقاء نوعه، أو صلاحهما جميعاً.

والمذموم من فعل النفس الأمارة. . . .»[1].

والغزالي يشير هنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

فالنفوس لها أمر ونهي، وهي تأمر بتحصيل مطلوباتها التي تحبُّها، وتلتذ لها، واتباع ما تهواه النفوس يكون بفعل ما تهواه، والإنسان لا بدَّ أن يتصور مراده الذي يهواه، ويشتهيه في نفسه، ويتخيله قبل فعله، فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم، يتبعه حيث كان، وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن، فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له.

واتباع الهوى بالاستجابة للنفس الأمارة من أعظم الضلال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾[3].

وقد عَدَّ الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ اتباع الهوى أحد ثلاث مهلكات، فقال: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع[4]، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السرّ والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا»[5].

واتباع الهوى له نتائج خطيرة، ولنتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[6]. ومن ينظر اليوم ببصيرة

---

(١) ميزان العلم (ص٢٤٥)، وانظر إحياء علوم الدين (١١١/٤).

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

(٣) سورة القصص: ٥٠.

(٤) الشح: أشدُّ من البخل، فالبخل: أن يبخل الإنسان بماله، والشحّ أن يضنّ بماله ومعروفه، وقيل أن يضنّ بمعروف غيره على غيره.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (مشكاة المصابيح ٦٣٧/٢).

(٦) سورة المؤمنون: ٧١.

مستنيرة بنور الإيمان يعلم ما حلَّ بالقلوب والعقول والأفراد والأسر والمجتمعات نتيجة لاتباع الهوى في السياسة والتشريع والاقتصاد وغير ذلك، يقول ابن القيم: رحمه الله «وكلُّ من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنَّما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلاّ استحكم هلاكه، وفي أمَّة إلاّ وفسد أمرها أتمَّ الفساد»[1]، والسبب في ذلك أنَّ أهواء العباد غير محكومة بميزان، ولا تعتمد الحجَّة والبرهان، وإنَّما هي محبوبات ومكروهات يراد من ورائها اللذَّة العاجلة، والمتعة الزائلة.

ومن نتائج اتباع الهوى أن متبعه يعرض عن الحقّ، وهذا يورثه الجهل والضلال، حتى يعمى قلبه عن الحقّ الواضح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3]. وإذا ضلَّ العبد باتباعه الهوى فإنَّ الشياطين تتلقفه، وقد لا يستطيع العودة إلى الحقِّ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا، وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾[4].

ومن نتائجه أنّه يبطل الأعمال الصالحة ويفسدها، فالذي يفعل ويترك اتباعا للهوى، لا عبودية لله، إذا عمل من الأعمال الصالحة ما وافق هواه، فإنَّ عمله غير مقبول، لأنَّه لم يقصد به وجه الله تعالى، يقول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله في أمثال هؤلاء: «لا تكن ممَّن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذاً أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحقِّ، وتعاقب على ما خالفته، لأنَّه إنَّما قصد اتباع هواه»[5].

---

(١) اعلام الموقعين (٧٢/١).
(٢) سورة الصف: ٥.
(٣) سورة ص: ٢٦.
(٤) سورة الأنعام: ٧١.
(٥) مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٧٩).

وقد أبان هذه المسألة الشاطبي في الموافقات فقال: «اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنَّه إذا تبيَّن أنَّه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفا»[1]. واستدلَّ على ذلك بثلاثة أدلّةٍ:

الأول: أنَّ الهوى سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي، لأنَّه مضادّ لها.

الثاني: أنَّه إذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس ضراوة وأنساً به، حتى يسري معها في أعمالها، ولا سيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج، فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعي، فيصير سابقا له، وإذا صار سابقا له صار العمل الامتثالي تبعا له وفي حكمه، فبسرعة ما يصير صاحبه إلى المخالفة، ودليل التجربة حاكم هنا.

الثالث: أنَّ العامل بمقتضى الامتثال من نتائج عمله الالتذاذ بما هو فيه، والنعيم بما يجنيه من ثمرات الفهوم، وانفتاح مغاليق العلوم، وربما أكرم ببعض الكرامات، أو وضع له القبول في الأرض، فانحاش الناس إليه، وحلقوا عليه، وانتفعوا به، وأمّوه لأغراضهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم، إلى غير ذلك مما يدخل على السالكين طرق الأعمال الصالحة من الصوم والصلاة وطلب العلم والخلوة للعبادة، وسائر الملازمين لطرق الخير. فإذا دخل عليه ذلك كان للنفس به بهجة، وأنس وغنى ولذة ونعيم، بحيث تصغر الدّنيا وما فيها بالنسبة إلى لحظة من ذلك، كما قال بعض الصالحين: لو علم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا بالسيوف. وإذا كان الأمر كذلك فلعلَّ النفس تنزع إلى مقدمات تلك النتائج فتكون سابقة للأعمال، وهو باب السقوط عن تلك الرتبة، والعياذ بالله».

عـــلاج الهـــوى

وللإنسان في مجاهدة الهوى **ثلاثة أحوال**، كما يقول الغزالي:

---

(١) الموافقات (٢/ ١٢٥ - ١٢٦).

الأولى : أن يغلبه الهوى فيملكه ولا يستطيع له خلافا، وهوحال أكثر الخلق، وهو الذي قال الله فيه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1]، فمن كان تردّده في جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره، فقد اتخذ إلهه هواه.

الثانية: أن يكون الحرب بينهم سجالا، تارة لها اليد، وتارة عليها اليد، فهذا الرجل من المجاهدين، فإن اخترمته المنية في هذه الحالة فهو من الشهداء، لأنَّه مشغول بامتثال كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه الرتبة العليا للخلق سواء الأنبياء والأولياء.

الثالثة: أن يغلب هواه فيصير مستوليا عليه لا يقهره بحال من الأحوال، وهذا هو الملك الكبير، والنعيم الحاضر، والحرية التامة، والخلاص من الرق، ولذلك قال عليه السلام: «ما من أحد إلّا وله شيطان، وإنَّ الله قد أعانني عليه حتى ملكته»[2][3].

ونحن بحاجة إلى أن نرسم الطريق، كي نعرف السبيل التي نقاوم بها أهواءنا، ونقف في وجه الدواعي التي تدعونا إلى الشرِّ ومخالفة الصراط المستقيم.

لا شكَّ أن تخليص النفس من الهوى ليس بالأمر السهل الميسور، فهو يحتاج إلى جهد وعناء طويل، وقبل ذلك كلّه يحتاج إلى توفيق الله وعنايته، من أجل ذلك تكرَّر في الكتاب التحذير من الهوى، فقد حذَّر الله منه الأنبياء والرسل السابقين، وحذَّر منه رسولَ هذه الأمة، كما حذرنا منه أيضاً، وحذرالله موسى عليه السلام من اتباع أهواء الذين لا يستقيمون على منهج الله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا،

---

(١) سورة الفرقان : ٤٣.

(٢) الحديث في مسلم بغير هذا اللفظ، ونص موضع الشاهد منه: «قالت: (عائشة) يا رسول الله، أمعي شيطان؟ قال نعم: قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال نعم، ولكنَّ الله أعانني عليه حتى أسلم».
انظر مشكاة المصابيح (٢٢٣/٢).

(٣) ميزان العمل ص ٤٢٠.

لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[1].

وحذر داود من الحكم بالهوى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[2].

وقال في حقّ رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ، قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[3].

وأمرنا الله بالعدل والبعد عن الهوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[4].

ونحن في علاجنا لأهواء النفوس يجب أن نتوجه إلى دين الله نستمدُّ منه النور والضياء، وإلا فإنّنا لو تركنا لأنفسنا أن تضع منهجا لعلاج أهوائنا فإنّنا لن نحلَّ المعضلة، بل قد نزيدها ونعمقها.

ولقد وضع أقوام نهجا لعلاج النفوس بعيدا عن النظر في كتاب الله، فجاؤوا بالعجائب والغرائب، وضلّوا من حيث أرادوا الخير.

انظر الى رجل من هذا الصنف جاءه من يطلب منه أن يدله على طريق تطمئن فيه نفسه، ويهدأ قلبه، فإذا بهذا يدلّه على طريق عجب، فيقول له: «اذهب الساعة إلى الحجام، واحلق رأسك ولحيتك، وانزع عنك هذا اللباس، وابرز بعباءة، وعلّق في عنقك مخلاة، واملأها جوزا، واجمع حولك صبيانا، وقل

(١) سورة طه: ١٥ ـ ١٦.
(٢) سورة ص: ٢٦.
(٣) سورة الأنعام: ٥٦.
(٤) سورة النساء: ١٣٥.

بأعلى صوتك: يا صبيان، من يصفعني صفعة أعطيه جوزة، وادخل إلى سوقك الذي تعظّم فيه...»[1].

أي تربية هذه؟ وأين هي من منهج الإسلام الذي ينهى أن يهين المرء نفسه؟! وهذا آخر ينظر إلى جارية إذ يغلبه هواه، فلا يفعل ما أمره الله من التوبة والاستغفار، بل يقلع عينه التي نظرت إلى محرّم، فقد جهل في الأولى، وجهل جهلا أشد في الثانية، فعالج الحرام بحرام أكبر.

وهذه امرأة سألت شابا عن سر افتتانه بها؟ فلمّا عرفت أنّه قد فتن بعينيها قلعتهما، ورمت بهما إليه[2].

ولو ذهبنا نستقصي ما تناقله العلماء في هذا المجال لطال الحديث، وإيراد القليل في هذا يغني عن الكثير.

١ ـ تحويل الاتجـــاه:

إن النفس الإنسانية دائمة الهمِّ والإرادة، وهي في ذلك كنهر متدفق فياض، فإذا خاف قوم من النهر أن يغرق ديارهم، ويهلك زرعهم، فلن يكون العلاج بإيقاف تدفق النهر، وقطعه من مصبّه ومنبعه، فذلك ما لا طاقة لهم به، وإنما السبيل أن يحولوا مجراه.

وإذا كانت النفس الإنسانية لا يمكن أن تتوقف عن الهمّ والإرادة وطلب ما يقيم أودها، ويحفظ وجودها، ويضمن استمرار نوعها، لأنَّ ذلك سرّ من أسرار تكوينها ـ فليس السبيل أن نعدم ذلك ونزيله، إنَّما السبيل أن نعدل عن الضارِّ إلى النافع، وعن الحرام إلى الحلال، وعن الخبيث إلى الطيب.

والله يعلم مدى ضعفنا فلم يحرّم علينا كلَّ شهوة، لذلك أباح لنا من الهوى

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٩٩.
(٢) المصدر السابق.

والشهوة ما فيه الغنية والكفاية: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾[1].

قال ابن تيمية: «سياق الكلام يدلُّ على أنَّه ضعيف عن ترك الشهوات، فلا بدَّ له من شهوة مباحة يستغني بها عن المحرمة، ولهذا قال طاووس ومقاتل: «ضعيف في قلة صبره عن النساء»[2].

والسبيل أن نستغني بالحلال عن الحرام، وذلك بأن نأخذ محبوبات النفوس من الطريق الذي أحلَّه الشارع، ونأخذ منه في حدود لا تضر بدنيانا ولا أخرانا.

٢ ـ تقوية الإرادة:

وهذا لا يتأتى إلاّ بعلم وبصيرة، علم بالحلال والحرام، وفقه يحمله على أن يأخذ الحلال ويترك الحرام.

وهو في ذلك يحتاج إلى عزيمة قويَّة، وإرادة صلبة، ويكون تقوية الإرادة بتبصير الإنسان في نفسه بأضرار اتباع الهوى في الدنيا قبل الآخرة، وفي الآخرة بعد الدنيا، وتبصيرها بالخير الذي سيحرمه في الدنيا والآخرة. يكون بتوجيه قصده إلى طلب الله والدار الآخرة، وبذلك يقوى داعي الإخلاص ويضعف داعي الهوى، فقد تقرَّر أنَّ العضو يقوى بالاستعمال ويضعف بالترك، ومتى عودنا أنفسنا مصارعة داعي الهوى، وأمددنا داعي الإخلاص بما يقويه ويؤيده كانت النصرة له بحول الله وقوته. والاكثار من العمل الصالح يقوي الإرادة ويزكي النفس. يقول الغزالي: «الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزكية الكاملة، حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرار مع تقارب الزمان، حدث منها للنفس

---

(١) سورة النساء: ٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٥٧٢.

هيئة راسخة[1]، تقتضي تلك الأفعال وتتقاضاها، بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع، فيخفف عليه ما يستثقله من الخير»[2].

فإذا شغل العبد قلبه بإرادة طاعة الله والتوجه إليه، وجوارحه بالأعمال الخيِّرة قويت تلك الإرادة، وجاءت العزيمة الصادقة.

٣ ـ إحياء واعظ الله في قلوبنـــا:

المتتبع لآيات الكتاب والباحث في أحاديث المصطفى ـصلى الله عليه وسلمـ يعلم علما جازما أنَّ في أعماقنا وازعا يدفعنا إلى الخير، ويزجرنا عن الشرّ، قد يطمس هذا الوازع فلا يظهر إلاّ في آماد متباعدة، وقد يلحّ على صاحبه ويقلقه، ولكنّه عند المؤمن واضح بيّن، ذلك أنّ الله ألقى عليه من نوره، فكشف عنه عمى قلبه: ﴿فَإِنها لَا تَعْمَى الأَبصَارُ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3].

وليس صحيحا ما قرره زكي مبارك من أنَّ الضمير[4] لا وجود له في ذاته...، وإنَّما ينشأ من الشرائع الوضعية أو السماوية...[5]، ليس صحيحا ذلك، لأنَّ النفس الإنسانية تلقت في تكوينها الأولى الإحساس بالخير والشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

---

(١) يريد الغزالي بالهيئة الراسخة أن تصبح إرادة الخير وعمل الخير خلقا للإنسان، وقد عرّف الخُلق في (إحياء علوم الدين ٥٦/٣)، بأنّه عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سمّيت تلك الهيئة خلقا حسنا، وان كانت تصدر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا».

(٢) ميزان العمل ص٢٥١.

(٣) سورة الحج ٤٦.

(٤) يقول أحمد أمين في تعريف الضمير (الأخلاق ص٧٣): الضمير قوة يجدها المرء في أعماق نفسه تحذره من فعل الجريمة قبل وقوعها، وتوبّخه بعد وقوعها، وتأمره بفعل الواجب، وتلومه على عدم فعله، وهذا قد يوجد عند الحيوان، فالهرّة التي تسرق تختبىء لتأكل سرقتها بخلاف ما يقدم لها.

ويقول زكي مبارك معرفا الضمير: «الضمير هو صوت ينبعث من أعماق الصدور آمرا بالخير، أو ناهيا عن الشر، وان لم يرج مثوبة أو يخش عقوبة» (الأخلاق عند الغزالي ص١٠٦).

ويجب أن نلاحظ أنَّ هذا المعنى الشائع لكلمة الضمير لم يكن معروفا عند العرب السابقين والضمير عند العرب معناه: السر وداخل الخاطر، وهو الشيء الذي تضمر في قلبك، واضمرت الشيء أخفيته.

(٥) الأخلاق عند الغزالي ص١٠٧.

سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]، وزود الله الإنسان بالبصيرة: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[2]، وهدى الإنسان إلى طريقي الخير والشر: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[3]. كل ما في الأمر أنَّ الأديان السماوية تكشف الغشاوة عن القلوب، وتزيح الظلمات التي حجبتها عن الحق، وحجبت الحقَّ عنها، وتمدّها بالنّور الذي يمدّ البصيرة الداخلية ببصيرة إلهية فيكون ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[4].

أما الشرائع الوضعية فإنّها تفسد الضمائر، وتدسّي النفوس: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[5].

وممّا يقوي الضمير في نفس المسلم ويحييه أن يربط العبد قلبه بربّه خوفا وطمعا، ورغبة ورهبة، فالخوف من الله والوقوف بين يديه يدفع الهوى ويقهره: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[6].

يقول المرحوم سيّد قطب في تفسير هذه الآية: «الذي يخاف مقام ربّه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري، قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظلَّ في دائرة الطاعة ونَهْي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة، فالهوى هو الدافع القويّ لكلّ طغيان، وكلّ تجاوز، وكلّ معصية، وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقلّ أن يؤتى الإنسان إلاّ من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها. والخوف من الله هو

(١) سورة الشمس ٧ ـ ٨.
(٢) سورة القيامة: ١٤.
(٣) سورة البلد: ٨ ـ ١٠.
(٤) سورة النور: ٣٥.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٧.
(٦) سورة النازعات ٤٠.

الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة، وقلَّ أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى، ومن ثمَّ يجمع السياق بينهما في آية واحدة، فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها، الخبير بدوائها، وهو وحْده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤه وأدواؤها، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها»[1].

٤ ـ محاسبة العبد نفسه:

ومما يدفع الهوى ويبعده أن يحاسب المرء نفسه، وقد كان هذا دأب الصالحين، قال عمر بن الخطاب: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا»[2]. وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه»[3].

والمحاسبة تكون على أحوال:

الأولى: أن يحاسب العبد نفسه قبل أن يقدم على الفعل، وينظر في همّه وقصده. فالمرء إذا نفى الخطرات قبل أن تتمكن من القلب سهل عليه دفعها، ذلك أنَّ بداية الأفعال من الخطرات، فالخطرة النفسية والهمّ القلبي قد يقويان، حتى يصبحا وساوس، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة الجازمة لا بدَّ أن تكون فعلا. قال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة تثبَّت، فإن كانت لله أمضاها، وقال: رحم الله عبدا وقف عند همّه ؛ فليس يعمل عبد حتى يهمّ، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخَّر. والتثبت في الخطرات إنّما يكون بعرض همّه وخطراته على الكتاب والسنّة، فيجعل الكتاب والسنّة دليله، فإن لم يتثبت بعقله لم يبصر ما يضرّه ممّا ينفعه، وما لم يكن العبد كذلك فإنَّ النفس قد تدعو إلى أمور يظنّها خيرا، ثم يتبيّن أنّها شرّ.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.

(٢) الرعاية ص ٣٨.

(٣) تمامه (وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله تعالى) رواه الحاكم في المستدرك والعسكري والقضاعي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بأنَّ فيه ابن أبي مريم وهو واه (انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص٣٢٩).

الثانية : أن يعصي داعي الهوى ولا يوافقه[1]، وعصيان داعي الهوى يكون بالصبر عن مواقعة المعاصي والذنوب، يقول ابن القيم : «الصبر ثبات باعث العقل والدّين في مقابلة باعث الهوى والشهوة»[2].

ويقول : النفس تدعونا إلى الزنى والغضب وإفشاء السر والهروب من القتال، وتدعو إلى الانتقام والبخل والعجز والكسل، والإمساك عن هذه الدواعي يسمى صبراً[3]. والصبر للنفس بمنزلة الخطام والزمام للمطيّة، فإذا لم يكن لها زمام شرّقت وغربت في كلّ مذهب، قال الحجاج[4] في بعض خطبه : «اقدعوا هذه النفوس، فإنها طلعة إلى كلّ سوء، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما، فقادها بخطامها وزمامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإنَّ الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر علي عذابه . . .»[5].

الثالثة : بعد وقوع العبد في الخطأ وموافقة الهوى، فإنَّ الذي يحاسب نفسه يستعرض عمله دائماً، فإذا وجد أنَّه حاد عن السبيل عاد على نفسه باللوم، وتاب

---

(١) وقد كثر في كلام العلماء والأدباء والحكماء الأمر بمخالفة الهوى، يقول البوصيري :

وخالف النفسَ والشيطانَ واعصِهما ... وإنْ هما محّضاكَ النصحَ فاتّهِمِ

وقال عمرو بن العاص :

إذا المـرء لم يتـرك طعـامـا يحبّـه ... ولم يعص قلبـا غـاويـا حيث يممـا

قضى وطـرا منـه يسـيـرا وأصبحت ... إذا ذكـرت أمثـالـه تملأ الفـمـا

وقال الزبير بن عبد المطلب :

اواجتنب المقـارع حيث كـانـت ... واتـرك مـا هـويت لـمـا خشيت

وقال حكيم من حكماء الفرس : إذا اشتبه عليك أمران، فلم تدر أيّهما الصواب، فانظر أقربهما إلى هواك فاجتنبه. وكان يقال : «أخوك من صدقك وأتاك من جهة عقلك لا من جهة هواك».

«راجع عيون الأخبار لابن قتيبة لمزيد من الأمثلة»(٣٧/١).

(٢) عدة الصابرين ص١٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) هو الحجاج بن يوسف الثقفي، قائد داهية سفّاك للدماء، قلده عبد الملك أمر عسكره، فقضى على ابن الزبير، ووطد الحكم للأمويين، توفي عام (٩٥هـ).

راجع : (وفيات الأعيان ٢٩/٢)، (شذرات الذهب ١٠٦/١)، (الأعلام ١٧٥/٢).

(٥) عدة الصابرين ص١٤، والقدع: المنع والكف، والمراد كفُّها عما تتطلع إليه من الشهوات (لسان العرب ٣٤).

إلى ربه، وأناب، وسأله العفو والصفح والغفران: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

(١) سورة الزمر ٥٣.

obeikandl.com

ثانيـــا : الريـــــاء

جاءت نصوص الكتاب والسنة ترهبنا ترهيبا عظيما من أن نقصد بالعبادة التي شرعها الله لنتقرب بها إليه العباد، وعدَّ ذلك من عظائم الذنوب، بل عدّه شركا، وذلك لأنّ هذا المرائي لم يقصد الله وحده دون سواه بعمله، والإخلاص يقتضي أن يريد العابد الله لا شريك له.

والمرائي جعل العبادات مطيّة لتحصيل أغراضه، فقد استعمل العبادة فيما لم تشرع لأجله، وهذا تلاعب بالشريعة ووضع للأمور في غير مواضعها.

ومن النصوص القرآنية التي تتوعّد المرائين:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[1]. فقد تهدّد الله هذا الصنف المرائي بصلاته بالويل وهو الهلاك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[2]. فالمتصدِّق الذي يمنّ بصدقته على المتصدَّق عليه أو يؤذيه عمله باطل، مثله مثل الذي ينفق رياء.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا، وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾[3]. فالذي يريد بعمله ثواب الدّنيا يعطاه اذا شاء الله

---

(١) سورة الماعون / ٤ ـ ٧.

(٢) سورة البقرة / ٢٦٤.

(٣) سورة هود / ١٥.

تعالى[1]، ومصيره في الآخرة العذاب الشديد، لأنّه جرد قصده إلى الدنيا، فالآية- كما يقول القرطبي- عامة في كلّ من ينوي بعمله غير الله، كان معه أصل إيمانه أو لم يكن، وهذا قول مجاهد، وميمون بن مهران[2]، وإليه ذهب معاوية[3].

أمّا الأحاديث النبوية فهي كثيرة منها:

١ ـ روى أبو هريرة أنَّ رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ قال: «إنّ أول النّاس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنّك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثمَّ أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النّار.

ورجل تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم، وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنّك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت، ليقال قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى أُلقي في النّار.

ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنّك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النّار[4]». فهؤلاء الثلاثة الذين أجهدوا أنفسهم في الطاعات والعبادات لم تنفعهم طاعتهم وعبادتهم، لأنَّهم لم يبغوا بها وجه الله

---

(١) هذه الآية مطلقة وآية الإسراء مقيدة لها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

(٢) هو ميمون بن مهران الرقي فقيه من القضاة، كان عالم الجزيرة الفراتية وسيدها، استعمله عمر بن عبد العزيز على قضائها وخراجها، ثقة في الحديث، كثير العبادة، ولادته سنة (٣٧هـ)، ووفاته سنة (١١٧هـ). راجع: (شذرات الذهب ١٥٤/١)، (الكاشف ١٩٣/٣). (طبقات الحفاظ ص٣٩).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (انظر شرح النووي على مسلم ٥٠/١٣) وعزاه ابن الأثير إلى مسلم والترمذي والنسائي، (انظر جامع الأصول ٢٨١/٥).

تعالى، بل صارت عذابا، لأنَّهم قصدوا بها العباد لا ربَّ العباد، وفي هذا دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته[1].

٢ ـ عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ عن الرجل يقاتل حميَّة، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، رواه مسلم في صحيحه.

وفي رواية في صحيح مسلم أيضا، قال السائل: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2].

فقد صرّح الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ بأن المقاتل لا يكون مقاتلا في سبيل الله إلّا إذا كان هدفه إعلاء كلمة الله، أمَّا الذي يقاتل لغير ذلك فلا يعدّ مقاتلا في سبيل الله.

٣ ـ عن أسامة بن زيد[3] ـ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النَّار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النّار، فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف، ولا آتيه، وأنهى عن المنكر، وآتيه»[4].

---

(١) انظر شرح النووي على مسلم (٥١/١٣).

(٢) رواه الجماعة (انظر نيل الأوطار ٢٢٦/٧).

وقوله في الحديث: للذكر، أي ليذكره الناس بالشجاعة.

والحميّة: هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن العشيرة.

(٣) هو أسامة بن زيد بن حارثة صحابي جليل، ولد بمكة في السنة السابعة قبل الهجرة، كان حبيبا لرسول الله ﷺ، أثيرا عنده، أمّره الرسول ﷺ، في آخر حياته، وأسامة دون العشرين، توفي بالمدينة (٥٤هـ).

راجع: تهذيب التهذيب (٢٠٨/١)، خلاصة تذهيب الكمال (١ /٦٦)،(الكاشف ١٠٤/١).

(٤) رواه البخاري ومسلم (جامع الأصول ٢٨٧/٥)، وقوله في الحديث فتندلق، الاندلاق: الخروج، ومنه اندلق السيف عن قرابه، وأقتاب بطنه، الأقتاب جمع قتب: وهي الأمعاء.

٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

٥ ـ عن معاذ قال: سمعت رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ يقول: «اليسير من الرياء شرك»[٢].

٦ ـ وعن أبي سعد بن أبي فضالة، عن رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ قال: «إذا جمع الله النّاس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله مع الله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنى الشركاء عن الشرك»[٣].

٧ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ ونحن نتذاكر الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ »فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل، فيصلي، فيزيد صلاته، لما يرى من نظر رجل»[٤].

تعـــريف الريـــاء

الـــريـــاء لغـــة:

الرياء مصدر راءى، ومصدره يأتي على بناء مفاعله وفعال، وهو مهموز العين لأنَّه من الرؤية، ويجوز تخفيفها بقلبها ياء.

وحقيقة الرياء لغة: أن يري غيره خلاف ما هو عليه.

يقول الفيروز آبادي: وراءيته مراءاة ورياء: أريته على خلاف ما أنا عليه»[٥].

---

(١) رواه مسلم (جامع الأصول ٢٥٦/٥).

(٢) اخرجه ابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان، وضعّفه محقق المشكاة، (مشكاة المصابيح ٦٨٦/٢).

(٣) قال التبريزي في المشكاة (٦٨٤/٢) ـ رواه أحمد، وقال محقق المشكاة: رواه ابن ماجه والترمذي، وقال حديث حسن، وهو كما قال.

(٤) رواه ابن ماجة (مشكاة المصابيح ٦٨٧/٢)، قال محقق المشكاة: وهو حديث حسن.

(٥) بصائر ذوي التمييز (١١٦/٣).

الـــريـــاء شـــرعاً:

وقد عرّف العلماء الرياء بتعريفات قريبة من المعنى اللغوي، ومدار تعريفاتهم على شيء واحد هو: أن يقوم العبد بالعبادة التي يتقرب بها لله لا يريد الله عز وجلّ، بل يريد عرضا دنيويا.[1]

يقول الحارث المحاسبي في تعريف الرياء: «الرياء إرادة العبد العباد بطاعة الله»[2]، ويقول الغزالي: «الرياء التشبه بذوي الأعمال الفاضلة طلبا للسمعة والمفاخرة»[3]، ويقول العز بن عبد السلام: «الرياء إظهار عمل العبادة، لينال مظهرها عرضا دنيويا، إما بجلب نفع دنيوي أو تعظيم أو إجلال»[4].

وقال القرطبي: «حقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس»[5].

وقال مرّة: «الرياء أن يفعل شيئا من العبادات التي أمر الله بفعلها لغيره»[6].

وقال ابن حجر: «هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس، فيحمدوا صاحبها»[7].

وعرفه أبو بكر بن العربي: «هو أن يري النّاس أنّه يعمل عملا على صفة، وهو يضمر في قلبه صفة أخرى»[8].

---

(١) قد يكون العابد لا يريد ما عند الله عز وجل بل يريد الدنيا بعبادته ومع ذلك لا يعدّ مرائيا، وهذا يتصور في حالتين:

الأولى: أن يعمل العمل الصالح، ويطلب به الدنيا، ويصرح بذلك، ولا يخفيه كمن يطلب العلم الديني لقصد الرئاسة والوظيفة، أو يحج لتحصيل مال موعود به.

والثانية: أن يعمل العمل الصالح الذي شرعه ليعبد به كالصلاة والصدقة وصلة الأرحام، ويزعم أنّه مخلص له في ذلك، ولكنه يريد من الله بعبادته هذه أن يجازيه بحفظ ماله وتنميته أو حفظ عياله، وليس له مراد في إرضاء الله وتحصيل ثوابه، فهذا ليس له في الآخرة نصيب، وقد ذكر الله هذا الصنف في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

(٢) الرعاية ص٣٣.

(٣) ميزان العمل ص٢٨٥.

(٤) قواعد الأحكام ١٤٧/١.

(٥) تفسير القرطبي ٢١٢/٢٠.

(٦) تفسير القرطبي ١٨١/٥.

(٧) فتح الباري ١٣٦/١١.

(٨) تيسير العزيز ص٤٦١.

وقال الصنعاني: «الرياء أن يفعل الطاعة، ويترك المعصية، مع ملاحظة غير الله، أو يخبر بها، أو يحب أن يطلع عليها لمقصد دنيوي، من مال أو نحوه»[1].

الـريـاء والسمعـة:

عنون البخاري في صحيحه بهذا العنوان: «باب الرياء والسمعة»، وذكر فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[2].

والفرق بين الرياء والسمعة أنَّ الرياء هو العمل لرؤية الناس، والسمعة العمل لأجل سماعهم، فالرياء يتعلق بحاسّة البصر، والسمعة بحاسّة السمع، قال الحافظ ابن حجر: «المراد بالسمعة نحو ما في الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر»[3].

فالتسميع على هذا لا يكون إلّا في الأمور التي تسمع كقراءة القرآن وذكر الله تعالى، ونحو ذلك.

إلّا أن العز بن عبد السلام يرى أنَّ المراد بالتسميع هو أن يحدّث المرء غيره بما يفعله من الطاعات التي لم يطلع عليها المتحدث، أمّا الرّياء فهي الطاعة التي يظهرها الفاعل كي يراها الناس[4].

وعلى ذلك فالرياء لا يدخل في العبادات القلبية كالخوف والرجاء بخلاف التسميع، لأنَّ العبد قد يحدّث عما يكنه قلبه يريد بذلك ثناء الناس. يقول العز بن عبد السلام: «أعمال القلوب مصونة من الرياء، إذ لا رياء إلّا بأفعال ظاهرة ترى أو تسمع، والتسميع عام لأعمال القلوب والجوارح، وقد عدَّ الصوم من الأعمال التي لا تظهر إلا بالتسميع»[5].

---

(١) سبل السلام ١٨٤/٤.

(٢) رواه البخاري عن جندب بن عبد الله (انظر فتح الباري ٣٣٦/١١).

(٣) فتح الباري ٣٣٦/١١.

(٤) قواعد الأحكام ١٤٧/١، وقال مثله النووي رحمه الله تعالى: التسميع أن يعمل العمل في الخلوة، ثم يحدِّث بما عمل (شرح الأربعين ص١١).

(٥) قواعد الأحكام ١٤٨/١.

وقسم التسميع الى قسمين: (١)

الأول: تسميع الصادقين، وهو أن يعمل الطاعة خالصة لله، ثم يظهرها ويسمّع الناس بها، ليعظموه، ويوقروه، وينفعوه، ولا يؤذوه».

قال: وهذا محرم، وقد جاء في الحديث: «من سمَّع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به»(٢)، وهذا تسميع الصادقين.

الثاني: تسميع الكاذبين وهو أن يقول: صلّيت ولم يصلّ، وزكيت ولم يزك، وصمت ولم يصم، وحججت ولم يحج، وغزوت ولم يغز. فهذا أشدّ ذنباً من الأول، لأنَّه زاد على إثم التسميع إثم الكذب، فأتى بذلك معصيتين قبيحتين. وجاء في الحديث الصحيح: «المتسمِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»(٣).

وقد يجمع العبد بين هذين الأمرين القبيحين: الرياء والتسميع، يقول العز بن عبد السلام في ذلك: «لو راءى بعبادات، ثمَّ سمَّع موهما لاخلاصهما، فإنه يأثم بالتسميع والرياء جميعا، وإثم هذا أشد من الكاذب الذي لم يفعل ما سمَّع به، لأنَّ هذا أثم بريائه وتسميعه وكذبه ثلاثة آثام»(٤).

الـــرياء والعجـــب:

يقول ابن تيمية: «وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب».

ثم يفرّق بينهما قائلا: «فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس»(٥).

---

(١) قواعد الأحكام ١ / ١٤٧.

(٢) سبق تخريجه. ص ٤٣٧.

(٣) المحفوظ «من تشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور» وهو بهذا اللفظ في البخاري ومسلم، (انظر المقاصد الحسنة ص٤٠٧).

(٤) قواعد الأحكام ١/ ١٤٨.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٧٧/١٠.

obeikandi.com

والعجب في لغة العرب: الزهو، ورجل معجب مزهو بما يكون منه حسنا أو قبيحا، وقد أعجب فلان بنفسه فهو معجب برأيه وبنفسه والاسم العجب[1].
والعجب بالطاعات إنما يكون نتيجة استعظام الطاعة، فكأنه يمنّ على الله -تعالى- بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

والمعجب المغرور بنفسه وبعبادته وطاعته لا يحقّق ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3]، كما أنَّ المرائي لا يحقق ﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ﴾[4].

ومتى شغل العبد بتحقيق ﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[5]، خرج عن الرياء والعجب. وفي الحديث: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[6].

والعجب آفة تحبط العمل، يقول النووي رحمه الله تعالى: «اعلم أنَّ الإخلاص قد يعرض له آفة العجب، فمن أعجب بعمله حبط عمله، وكذلك من استكبر حبط عمله»[7].

أسبـاب الريـاء

أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه يخاف علينا الشرك الخفي أكثر مما يخاف علينا المسيح الدجال، وما ذلك إلّا لأنَّ الداعي إلى الرِّياء قويٌّ، إذ النفوس

---

(١) لسان العرب مادة (ع ج ب).

(٢) سورة الحجرات / ١٧.

(٣، ٤، ٥) سورة الفاتحة / ٥.

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان (مشكاة المصابيح ٦٣٧/٢).

(٧) شرح الأربعين ص١٠، وراجع في هذا الموضوع المدخل لابن الحاج، (٥٤/٣)، والقرافي في كتابه الفروق (٢٢٧/٤، ٢٢٨)، يرى أن العجب والتسميع لا يكونان إلا بعد تمام الطاعة، بخلاف الرياء فهو مقارن للعبادة، ومن هنا كان الرياء عنده مفسد للعبادة بخلاف العجب والتسميع فمع أنهما معصيتان إلّا أنَّ العبادة لا تفسد بهما، ويفرق القرافي بين العجب والتسميع بأنَّ العجب إنّما يكون بالقلب، بخلاف التسميع فهو باللّسان.

مجبولة على حبِّ الرئاسة والمنزلة في قلوب الخلق إلاّ من سلَّم الله، وقد أحسن الشاعر حيث يقول:

يهـوى الثنـاء مبـرِّز ومقصـر حبّ الثنـاء طبيعـة الإنسـان

وقد لا نكون مغالين في القول إذا ذهبنا إلى أنَّ الداعي إلى الرياء أعظم من الداعي إلى الشرك الأكبر، فالشرك الأكبر معدوم في قلوب المؤمنين الصادقين، ولهذا يكون الإلقاء في النّار أسهل عندهم من الكفر كما جاء في الحديث.

أما داعي الرياء فهو من الدنيا التي قال الله فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1]، وقال: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾[2]، والأمور التي تدعو إلى الرّياء مغروسة في أعماق النفس الإنسانية، فهي حبيبة إلى نفس الإنسان، أثيرة لديه، وقد حصرها الحارث المحاسبي[3] في ثلاثة أمور:

«حبّ المحمدة وخوف المذمَّة، والضعة[4] في الدنيا، والطمع لما في أيدي الناس».

ولا يحتاج هذا الذي قرره المحاسبي إلى دليل فالإنسان يجد في نفسه: «أنّه يحب أن يعلم العباد بطاعته لربّه، فيوصل ويعطى ويكرم، ويحبّ أن يحمد: يثنى عليه ويعظّم، ويكره أن يذمَّ، فيفعل الطاعة لئلا يذم بقلّة الرغبة فيها»[5].

وقد شرح لنا الحارث المحاسبي حديث أبي موسى الأشعري، وبيّن دلالته على أنَّ الرياء إنما يبعث عليه الأمور الثلاثة التي ذكرها، فالأعرابي السائل للرّسول صلى الله عليه وسلم، يقول: «يا رسول الله ،الرجل يقاتل حميَّة»[6]، ومعنى ذلك

---

(١) سورة الأعلى / ١٦.
(٢) سورة القيامة / ٢٠ ـ ٢١.
(٣) الرعاية ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٤) الضعة : الدناءة، والوضيع: الدنيء.
(٥) الرعاية ص١٣٩.
(٦) سبق تخريجه.

ـكما يقول الحارث ـأنَّه يحمي فيأنف أن يقهر أو يذمَّ بأنَّه غُلب أو غلب قومه، فيقاتل لذلك».

قال: «الرجل يقاتل ليرى مكانه» وهذا طلب الحمد بالقلب ومعرفة القدر.

قال: «ورجل يقاتل للذكر» وهذا طلب الحمد بالألسن.

وذكر حديث ابن مسعود: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فيكتبون النّاس على نيّاتهم، فلان يقاتل للذِّكر»، ومعنى ذلك حمد المخلوقين.

«وفلان يقاتل للملك» وهذا جمع الدنيا.

وقد أرجع الحارث المحاسبي هذه الثلاثة التي تبعث على الرياء وتهيجه إلى اثنتين ثمَّ إلى واحدة، قال: «ويجمع ذلك كلّه حبّ المحمدة وخوف المذمة، لأنَّ العبد يعلم أنَّه لا ينال ما عند الناس بطاعة ربه إلّا أن يحمدوه عليها، فتبذل له أموالهم، وأنّه ما جزع من الذمّ لحبه للمحمدة كراهية أن يزول عنه حمدهم، فتؤول هذه الثلاثة إلى حبّ المحمدة، إلا أنها تشعبت وتفرقت على أقدار النّاس، وقدر مراتبهم»[1].

وقد استثنى الإمام مالك ـرحمه الله تعالى- وتابعه ابن العربي[2] من هذه الأفعال التي هي رياء، تلك العبادات التي يظهرها العبد، كي تثبت عدالته، وتصحّ إمامته، وليُقْتدى به، قال القرطبي: «قال ابن العربي: إنَّ من صلى صلاة ليُرِها الناس، ويرونه، فيشهدون له بالإيمان، أو أراد طلب المنزلة والظهور، لقبول الشهادة وجواز الإمامة، فليس ذلك بالرياء المنهي عنه، ولم يكن عليه حرج، وإنَّما الرياء في المعصية أن يظهرها صيدا للناس وطريقا إلى الأكل، فهذه نيّة لاتجزىء وعليه الإعادة.

---

(١) الرعاية ١٣٩.

(٢) راجع تفسير القرطبي ٥ / ٤٢٣.

وينبغي أن يحمل كلام مالك وابن العربي في مثل هذه الحال على ما إذا كان القصد إلى هذه الأمور تابعا للإخلاص، أما إذا كان قصد هذه الأمور متبوعا فهو رياء، لا يخالف فيه مالك ولا غيره[1].

ومع ذلك فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنَّ هذا القصد ينافي الإخلاص ويذهبه، وأنّه من الرِّياء، منهم الحارث المحاسبي والقرطبي وغيرهما[2].

الأمور التي يراءى بها[3]

قد يرائي العبد بالنحول والاصفرار، ليوهم الناس أنَّه جاد في العبادة كثير الحزن والخوف، وقد يرائي بضعف الصوت، وغور العينين وذبول الشفتين ليستدلَّ بذلك على الصيام.

وقد يرائي بتشعيث الرأس وحلق الشارب واستئصال الشعر، ليظهر بذلك تتبع زي العبّاد والنساك،وقد يحرص على إبراز أثر السجود في جبهته، ويلبس الغليظ من الثياب وخشنها، ويشمرها، ويقصر الأكمام، ويخصف النعال.

وقد يكون رياؤه بالنطق بالحكمة، وإقامة الحجة عند المجادلة، وحفظ الحديث وبيان الحجة والفهم والعلم وإظهار الذكر لله -عز وجل- باللسان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحسن الصوت بالقراءة، وتحزينه وإظهار

---

(١) وقد جاء اشتراط كون القصد متبوعا فيما أورده ابن رشد في المقدمات (ص٣٠)، وأحب أن أسوق كلامه لما فيه من توضيح لهذه المسألة، يقول ابن رشد: (سئل الإمام مالك وربيعة عن الرجل يحب أن يلقى في طريق المجد، ويكره أن يلقى في طريق السوء، فأما ربيعة فكره ذلك، وأما مالك فقال: إذا كان أول أمره ذلك وأصله لله تعالى فلا بأس بذلك إن شاء الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ سورة طه/٣٩، ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ سورة الشعراء/٨٤، وقال عمر بن الخطاب لابنه: «لأن قلتها أحبّ إليّ من كذا وكذا» يريد جواب سؤال للرسول ﷺ- لم يعرفه القوم، وعرفه ابن عمر. قال مالك: فأيّ شيء هذا إلاّ هذا، فإنَّ هذا شيء يكون في القلب لا يملكه، هذا إنما يكون من الشيطان ليمنعه العمل، فمن وجد ذلك فلا يكسل عن التمادي في فعل الخير، ولا ييأس من الأجر، وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع، ويجرّد النية لذلك).

(٢) الرعاية ص١٥٠، تفسير القرطبي ٤٢٣/٥.

(٣) راجع الرعاية (ص١٤١- ١٤٢)، أحكام القرآن لابن العربي (١٩٧٢/٤) تفسير القرطبي(٢١٢/٢٠-٢١٣)، سبل السلام (١٧٥/٤).

التسخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ، والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة.

وقد يرائي بعمله؛ كأن يطوّل الصلاة، ويزيد في الركوع والاعتدال منه أو السجود، وقد يرائي بالصوم أو بالغزو أو بالحج أو بطول الصمت وبذل المال.

وقد يرائي بصحبة العلماء بأن يحرص على أن يسير مع العالم أو العابد، ليقال: إنه صاحبه، ومن أهل ودّه، فيعظَّم بذلك.

حكم العمـل المراءى به

هل كل عمل خالطه قصد الرياء يعدُّ باطلا؟

لم تتفق نظرة العلماء في هذا الموضوع،فالصنعاني ينظر الى القصد هل تمحض للرياء أم صاحبه قصد الثواب، وفي الحالة الثانية هل كانت إرادة الثواب أرجح أو أضعف أو مساوية[1] ؟

وهو بذلك يضع أمامنا أربع صور لا يعطيها حكما واحدا ، والصورة الأولى لا أظن أحدا من العلماء خالف في الحكم عليها بالبطلان، وهي الحالة التي لا يقصد فيها العابد الثواب، إنّما قصده كلّه أن ينال منزلة ومحمدة عند الناس.

وقد سمّى ابن رجب[2] هذا النوع من الرياء بالرياء المحض، وهذا يقع من المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ﴾[3].

ويرى ابن رجب أنَّ هذا النوع من الرياء لا يكاد يقع من مؤمن بالله واليوم الآخر

---

(١) سبل السلام ٤ / ١٨٥.

(٢) هو عبد الرحمن بن شهاب الدين: أحمد بن رجب السلامي البغدادي، ثم الدمشقي من العلماء الأفذاذ الذين حفظوا الحديث، وقاموا عليه له (شرح جامع الترمذي)، و(جامع العلوم والحكم)، (والقواعد الفقهية) ولادته في ٧٣٦هـ، ووفاته (٧٩٥هـ).

راجع : (شذرات الذهب ٣٣٩/٦)، (طبقات الحفاظ ص٥٣٦)، (الأعلام ٦٧/٤).

(٣) سورة النساء / ١٤٢.

في فرض الصلاة والصوم، وأنّه قد يقع في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإنّ الإخلاص فيها عزيز.

ويقول ابن رجب في هذا: «العمل على هذا النحو لا يشك مسلم أنَّه حابط، وأن صاحبه يستحقُّ المقت من الله والعقوبة»[1].

وقد سمّى الحارث المحاسبي هذا النوع من الرياء: الرياء الأعظم والأشد، وقد قال فيه: «الوجه الذي هو أشدّ الرياء وأعظمه: إرادة العبد العباد بطاعة الله عزوجل، لا يريد الله عز وجل بذلك»[2].

وقال الغزالي في هذا النوع: «أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا، وهو سبب المقت والغضب»[3].

أما الصور الثلاثة الأخرى فيكون قصد الرياء مصحوبا بقصد الثواب، وانما كانت الصور ثلاثة لأنَّ إرادة الثواب قد تكون أرجح، وقد يكون قصد الرياء أرجح، وقد يتساويان.

والصنعاني هنا يتابع الغزالي في النظر الى قدر قوة الباعث[4]:«فإن كان الباعث الديني مساويا الباعث النفسي تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه. وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب؛ نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني».

والغزالي يرى أنَّ هذا من العدل الذي تقتضيه قاعدة الثواب التي نصَّ الله عليها

---

(١) الدين الخالص ٣٨٢/٢.
(٢) الرعاية ص١٣٥.
(٣) إحياء علوم الدين.
(٤) راجع إحياء علوم الدين (٣٨٤/٤-٣٨٥)، وكل ما نقلناه عنه هنا فمن هذا الموضع.

في غير آية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهْ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[2]، فقصد الخير لا يضيع عند الله: «فإن غلب قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه، وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسدة».

والغزالي يقوي مذهبه ويستدلّ عليه بالمعقول وبالنصوص.

فهو يقول في توضيح مذهبه: «وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته في العمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى تلك الصفة، وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما».

وقد مثل لهذا بالأمور المحسوسة، فالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضرّه، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وان كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثره. فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية، ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ـ فكذلك لايضيع مثقال ذرة من الخير والشر،ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده، وفي تقريبه من الله أو ابعاده، فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان، فلم يكن له ولا عليه، وان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل لا محالة شبر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[3] فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقبه، فإذا

---

(١) سورة الزلزلة / ٧، ٨.

(٢) سورة النساء/ ٤٠.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين (جامع العلوم ص١٤٧).

اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة».

وقد استدلَّ بالإجماع المنعقد على صحة الحج ممن قصد التجارة في حجه مع أن حجه قد امتزج به حظ من حظوظ النفس.

وكذلك الغزاة الذين يقصدون نيل الأسلاب والغنائم هم من المجاهدين في سبيل الله، ولا يخرجهم ذلك عن كونهم مجاهدين، وإنَّما كان الأمر كذلك لأنَّ «الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية، فلا يحبط به الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة».

والغزالي لم تخف عليه النصوص التي تدلّ على أنَّ العمل المشوب بالرياء باطل، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1]، وحديث الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النّار يوم القيامة، والأحاديث التي يعدّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- الرياء فيها شركا، والتي يقول الله فيها يوم القيامة للمرائي: خذ عملك ممن عملت، والحديث الذي يحصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيه الجهاد فيمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

أقول لم تخف هذه النصوص عن الغزالي، ولم تغب عن باله، فهو يذكرها، ثمّ يعقب عليها قائلا: «هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه، بل المراد منها من لم يرد إلاَّ الدنيا، كقوله: «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا، وكان ذلك هو الأغلب على همه...»، وأما لفظ الشركة حيث ورد فلا مطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما، ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة في خطر أبدا، فإنَّه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده، فربما يكون عليه وبالا...».

هذا خلاصة مذهب الذين اتجهوا للنظر في قوة الدافع.

---

(١) سورة الكهف/ ١١٠.

مناقشة ما احتج به أصحاب هذا المذهب:

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذا المذهب مذهب قوي، وأنَّ ما اعتمدوا عليه أمر منطقي.

ولكننّا حين نمعن التأمل فيه نجده غير صواب، فالغزالي -رحمه الله- ينظر إلى قوة الدافع، فالدافع يستحوذ بالعمل. ونحن نقول: إن قصد الرياء يفسد الإخلاص ويحبط العمل، وإن كان قليلا، وهذا له أمثلة في الأمور المحسوسة، فهناك قطرة صغيرة من القذارة قد تفسد جو منزل بأكمله، لخبث رائحتها، وقطرة من السم قد تفسد الطعام الكثير، وقد ورد في بعض النصوص أنه لو قدّر أن تسقط قطرة من طينةالخبال- عصارة أهل النار التي هي شرابهم- في أرضنا هذه فإننا لانستطيع البقاء، لأنَّها ستملأ المشارق والمغارب خبثا.

فالقضية ينبغي أن ينظر إليها من زاوية أخرى، هي أنَّ الرياء يفسد الإخلاص؛ وبالتالي يبطل العمل الصالح، وقد دلَّت النصوص على أن الأعمال لا تقبل مالم تكن خالصة يبتغي بها الله وحده.

وحمل الغزالي لهذه النصوص الدالة على بطلان العمل المشوب بالرياء، على الرياء المحض الذي لم يقصد فيه الثواب أصلا، بعيد وبعيد جدا، فالثلاثة الذين هم أول من يقضي فيهم الله حكمه، وأول من تسعر بهم النار، وهم: المجاهد، وقارىء القرآن، والمنفق، هل يعقل أنهم كانوا لا يقصدون القربة مطلقا؟! وقد ورد أكثر من حديث ينص على أنَّ الرياء شرك والمشرك لا يقبل عمله.

وقد عدَّ القرطبي الرياء أحد أقسام الشرك الثلاثة مبطلا للأعمال، قال: «ويلي الرتبة[1] الإشراك في العبادة، وهو الرياء، وهو أن يفعل شيئا من العبادات التي أمر

---

(١) المرتبة الأولى: هي الشرك الأعظم، وأصله اعتقاد شريك لله في الألوهية، وهو شرك أهل الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ويليه في الرتبة: اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل وهو قول من قال إنَّ موجودا ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلها كالقدرية مجوس هذه الأمة.

وعدّ الرياء في المنزلة الثالثة التالية (انظر تفسير القرطبي ١٨١/٥).

الله بفعلها بغيره، وهذا الذي سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطل للأعمال، وهو خفي لا يعرفه كلُّ جاهل غبي»[1].

وممن ذهب هذا المذهب الحارث المحاسبي، فهو يعدّه شركا محبطا للعمل، يقول في الرعاية: «إرادة العباد بطاعة الله عز وجل وإرادة ثواب الله عز وجل يجتمعان في القلب، والإرادتان: إرادة المخلوقين، وإرادة الثواب، وهو أدنى الرياء، وهو الشرك بالإرادة في العمل، لأنّه أراد الله والنّاس، فأشرك في عمله بطلب حمد الله -عز وجل- وطلب حمد المخلوقين»[2].

وأورد الأحاديث الدالة على أنَّ هذا شرك[3]، ومنها حديث محمود بن لبيد[4] أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»، قال: «يقول الله عز وجل لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[5].

وقال رجل لعبادة بن الصامت[6]: أقاتل في سبيل الله بسيفي أريد الله -عز وجل- ومحمدة المؤمنين، فقال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يرد عليه: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إنّ الله عز وجل يقول: «أنا أغنى الشركاء عن

---

(١) تفسير القرطبي ١٨١/٥.

(٢) الرعاية ص١٣٦.

(٣) راجع في هذه النصوص الرعاية ص١٣٦ وما بعدها.

(٤) هو محمود بن لبيد بن عقبة بن رافع، من بني عبد الأشهل، من الأنصار، من أولاد الصحابة، لا يصح له سماع من النبي ﷺ، روى عن كبار الصحابة، توفي عام (٩٦هـ) راجع (خلاصة تذهيب الكمال ١٥/٣)، (شذرات الذهب ١١٢/١).

(٥) الحديث عزاه التبريزي إلى ابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان، وقال محقق المشكاة: اسناده ضعيف (مشكاة المصابيح ٦٨٦/٢).

(٦) هو عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي صحابي موصوف بالورع شهد العقبة، وكان أحد النقباء، مات بالرملة بفلسطين (٣٤هـ).

(راجع: تهذيب التهذيب ١١/٥)، (خلاصة تذهيب الكمال ٣٢/٢)، (الكاشف ٦٤/٢).

الشريك، من عمل عملا وأشرك معي شريكا، ودعت نصيبي لشريكي»[1].

وعن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك»[2].

وعن أبي سعيد الخدري[3] قال: خرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال»؟ فقلنا بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل، فيصلي، فيزيد في صلاته لما يرى من نظر رجل»[4].

والثاني يريد الناس ورب الناس وكلاهما محبط للعمل، وذكر القرطبي أنَّ هذا القول: «نقله الحافظ أبو نعيم في الحلية عن بعض السلف»، واستدلّ بعضهم بقوله تعالى: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5]، فكما أنّه كبر عن الزوجة والشريك والولد، تكبّر أن يقبل عملا أشرك فيه غيره، فهو تعالى أكبر كبير ومتكبر»[6].

وقد نسب ابن نجيم إلى بعض الأحناف القول بكفر من صلى رياء، وقال بعضهم: لا أجر له، وعليه الوزر. وقال بعضهم: لا أجر له، ولا وزر عليه، وهو كأنه لم يصل»[7].

---

(١) هذا الأثر الذي ذكره المحاسبي عزاه ابن كثير في تفسيره (٤٣٢/٤) إلى ابن أبي حاتم، وقد رواه مسلم مرفوعا عن أبي هريرة بلفظ: قال تعالى: ﴿أنا أغني الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه﴾ (مشكاة المصابيح ٦٨٣/٢).

(٢) رواه أحمد (مشكاة المصابيح ٦٨٦/٢).

(٣) هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن خدرة أبو سعيد، بايع تحت الشجرة، وشهد ما بعد أحد، وكان من علماء الصحابة، توفي سنة ٧٤هـ، راجع: (تهذيب التهذيب ٤٧٩/٣)، (الأعلام ١٣٨/٣).

(٤) رواه ابن ماجة (مشكاة المصابيح ٦٨٧/٢)، وقال محقق المشكاة: اسناده حسن.

(٥) سورة الحشر/ ٢٣.

(٦) الأربعين النووية ص١٠.

(٧) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص٣٩.

وقال ابن القيم: وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا، فإنّه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[1]، فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير مأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه...»[2].

شبهــة وجوابها:

ولعل من أكثر ما يستوقف الناظر في الحجج التي أوردها الغزالي أنَّ الحاج القاصد للتجارة صحيح حجّه بالنصّ القرآني، وبالإجماع على ذلك، والغازي لذي ينال الغنيمة ويتطلع إليها لا يخرجه ذلك عن الإخلاص، ولا يبطل عمله، وإن كان قد ينقص ثوابه وأجره.

فالغزالي هنا يرى أن هذا تشريك في الإرادة، وليس بمبطل العمل، وقد غاب عن الغزالي أنَّ هذا التشريك ليس شركاً، ولا يدخل في الرياء. فهذا الذي قصد التجارة في الحج لم يقصد أن يرائي بعمله هذا، وعمله ليس شركاً، إنما قصد أن يحج، وأن يتاجر، وقد أباح الله له هذا القصد.

ولم أر من فرق تفريقاً دقيقاً بين الرياء والتشريك في العبادة غير القرافي- رحمه الله تعالى- فقد بيّن هذه المسألة وجلاها، فقال: «الفرق الثاني والعشرون والمائة بين قاعدة الرياء في العبادة وبين قاعدة التشريك فيها: اعلم أنَّ الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى في طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان في تلك العبادة، كما نصَّ عليه المحاسبي وغيره، ويعضده ما في الحديث الصحيح، أخرج مسلم وغيره أنَّ الله تعالى يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل

(١) سورة البينة / ٥.
(٢) الداء والدواء ص١٩١.

عملاً أشرك فيه غيري تركته له أو تركته لشريكي»[1] فهذا ظاهر في عدم الاعتداد عندالله تعالى بذلك العمل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2]، يدلُّ على أنَّ غير المخلص لله تعالى غير مأمور به، وما هو غير مأمور به لا يجزىء عن المأمور به، فلا يعتد بهذه العبادة وهو المطلوب».

ثم قال: «وتحقيق هذه القاعدة وسرها وضابطها أن يعمل للعمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى، ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو بعضهم، فيصل إليه نفعهم أو يندفع به ضررهم، فهذا هو قاعدة أحد مسمى الرياء، والقسم الآخر أن يعمل العمل لا يريد به وجه الله البتة، بل الناس فقط، ويسمَّى هذا القسم رياء الإخلاص، والأول رياء الشرك».

وبين أنَّ أغراض الرياء ثلاثة: التعظيم، وجلب المصالح، ودفع المضار الدنيوية، والأخيران يتفرعان على الأول، فإنه إذا عظم انجلبت إليه المصالح، واندفعت عنه المفاسد.

ثم قال: «هذا الغرض الكلي في الحقيقة، وأما مطلق التشريك كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد، وليحصل له المال من الغنيمة، فهذا لا يضره، ولا يحرم عليه بالإجماع، لأنَّ الله جعل له هذا في العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال، هذا ونحوه رياء حرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد شرّك، ولا يقال لهذا رياء بسبب أنَّ الرياء أن يعمل ليراه غير الله من خلقه والرؤية لاتصح إلاّ من الخلق، فمن لا يرى ولا يبصر لا يقال في العمل بالنسبة إليه رياء، والمال المأخوذ في الغنيمة ونحوه لا يقال إنّه يرى ويبصر، فلا يصدق على هذه الأغراض لفظ الرياء لعدم الرؤية فيها.

---

(١) سبق تخريجه قريبا.
(٢) سورة البينة/ ٥.

وكذلك من حجّ وشرّك في حجه غرض المتجر، ويكون جلّ قصوده كلّه السفر للتجارة خاصة، ويكون الحج إما مقصودا مع ذلك أو غير مقصود، ويقع تابعا اتفاقا، فهذا أيضا لا يقدح في صحة الحج، ولا يوجب إثما ولا معصية. وكذلك من صام ليصحَّ جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التي ينافيها الصوم، ويكون التداوي هو مقصوده أو بعض مقصوده، والصوم مقصود مع ذلك، وأوقع الصوم مع هذه المقاصد، لا يقدح في صومه بل أمر بها صاحب الشرع في قوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء» اي قاطع.

فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحا لم يأمر به صلى الله عليه وسلم في العبادة.

ومن ذلك أن يجدد وضوءا ليحصلِ له التبرد أو التنظف.

قال: «وجميع هذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق بل هي لتشريك أمور من المصالح، ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك، ولا للتعظيم، وذلك لا يقدم في العبادات».

وبعد هذا البيان قال: «فظهر الفرق بين قاعدة الرياء في العبادات وبين قاعدة التشريك فيها غرض آخر غير الخلق مع أن الجميع تشريك، نعم لا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب، أما الإثم والبطلان فلا سبيل إليه ومن جهته حصل الفرق»[1].

تحقيق القول في قصد المكلف المصالح التي أقر الشارع قصدها بالعبادة:

عدم إدراك بعض العلماء للفرق الذي وضحه القرافي أوقعهم في خطأ بيّن

---

(١) الفروق ٢٢/٣

سبب إشكالا عظيما، إذ حكموا على العبادات التي قصد بها العابد أمراً أقره الشارع أو أمرا يتحقق ضمنا بالبطلان.

فمن ذلك ما ذكره المؤلف من الصوم للتداوي أو لمن لا يستطيع الزواج، أو الوضوء تبردا أو تنظفا، ومن أمثلته انتظار الإمام المأموم بإطالة الركعة أو الركوع، والتجارة في الحج والغنيمة في الغزو.

فقد نصّ ابن حزم ـرحمه اللهـ في المحلّى[1] على أنَّ الذي «خلط بنية الطهارة للصلاة نية التبرد أو غير ذلك لم تجزه الصلاة بذلك الوضوء، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ﴾[2]، فمن مزج بالنيَّة التي أمر بها نيّة لم يؤمر بها فلم يخلص لله تعالى العبادة بدينه ذلك، واذا لم يخلص فلم يأت بالوضوء الذي أمره الله تعالى به».

وممن ذهب هذا المذهب القرطبي، قال في تفسيره: «من تطهر تبردا، أو صام محمّا لمعدته، ونوى مع ذلك التقرب، لم يجزه، لأنه مزج في نية التقرب نية دنياوية، وليس لله إلاّ العمل الخالص كما قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4].

واستدلّ في موضع آخر بآية سورة هود: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾[5] على أن من توضأ لتبرد أو تنظف لا يقع قربة من جهة الصلاة، وهكذا كلّ ما كان في معناه[6]».

وحكى عدم إجزاء من قصد التبرد مع نيّة رفع الحدث النوويّ[7] والحطاب[8]، وضعَّفا القول بذلك.

---

(١) المحلّى ١/٧٦، ٧٧.
(٢) سورة البينة/٥.
(٣) سورة الزمر/٣.
(٤) سورة البينة/٥.
(٥) سورة هود/١٥.
(٦) تفسير القرطبي ٥/١٨٠، ٩/١٤.
(٧) المجموع ١/٣٧٥.
(٨) الحطاب على خليل ١/٢٣٥.

وفي انتظار الإمام المأموم في الركعة والركوع «قال بعضهم: أخاف أن يكون شركا، وهو قول محمد بن الحسن[1]، وبالغ بعض أصحاب الشافعي فقال: إنّه مبطل للصلاة»[2].

وقال النووي في المجموع: «قال أبو حنيفة ومالك والأوزاعي وأبو يوسف والمزني وداود: لا ينتظر الإمام حال ركوعه القادم كي يدرك الركعة، واحتج لهؤلاء بعموم الأحاديث الصحيحة في الأمر بالتخفيف، وبأن فيه تشريكا في العبادة....»[3].

ونقل المزني هذا القول عن الشافعي، لأن هذا الانتظار يشوب الإخلاص، ويذكر المزني أنه اطلع على رواية أخرى للشافعي يجيز ذلك، ومع هذا فقد رجح الأول[4].

وفي التجارة في الحج يقول ابن العربي: «وأما ألاّ يتجر فيه فهو مذهب الفقراء «يقصد الصوفية» ألا تمتزج الدنيا بالآخرة، وهو أعظم للأجر وأخلص في النية». ومع ذلك فإنَّ ابن العربي لم يذهب هذا المذهب، ولم يقل بقولهم، ونصَّ على مخالفته لهم في موضع آخر، قال: «والقصد إلى التجارة في الحج لا يكون شركا، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، خلافا للفقراء، أن الحج دون تجارة أفضل»[5].

ولو انتبه هؤلاء العلماء الأعلام إلى القاعدة التي قررها القرافي، وأنَّ هذا التشريك في العبادة لا يدخل في باب الرياء، لما وقعوا في هذا الاشكال الذي أوقع كثيرا من الناس في حيرة واضطراب.

---

(١) هو محمد بن الحسن الشيباني، سمع من أبي حنيفة ومالك والشافعي، والأوزاعي والثوري وأبي يوسف، وكان إماما في الفقه والعربية من كتبه: (المبسوط)، (الزيادات)، و(السير)، ولادته بواسط في العراق (١٣١هـ)، ووفاته بالري (١٨٩هـ). راجع؛ (وفيات الأعيان ٥٧٤/١)

(٢) نيل الأوطار ١٤٧/٣.

(٣) المجموع ١٣٠/٤.

(٤) مختصر المزني ١١٣/١.

(٥) أحكام القرآن ١١٨/١، ١٣٦/١.

ولقد وردت نصوص كثيرة تخالف ما ذهبوا إليه، ففي الحج يقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]، وقد صحَّ عن ابن عباس أنَّ الآية نزلت عندما خاف المسلمون من الاتجار في أسواق الجاهلية في مواسم الحجّ، والحديث في صحيح البخاري. وفي رواية عن ابن عباس في سنن أبي داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم: «إن النَّاس في أول الحج كانوا يتبايعون في منى وعرفات وذي المجاز ومواسم الحجّ، فخافوا البيع وهم حرم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج»[2].

وقد عقد العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام فصلا عنون له بقوله: «فصل في بيان أنّ الإعانة على الأديان وطاعة الرحمن ليست شركا في عبادة الديّان وطاعة الرحمن»[3].

وقد جلّى رحمه الله هذه المسألة فقال: «إن قيل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه في الركوع شركا في العبادة أم لا؟ قلت: (القائل العز) ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظنَّ، بل هو جمع بين قربتين لما فيه من الإعانة على إدراك الركوع وهي قربة أخرى والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله... وليس لأحد أن يقول هذا شرك في العبادة بين الخالق والمخْلوق، فإن الإعانة على الخير والطاعة لو كانت شركا ورياء، لكان تبليغ الرسالة وتعليم العلم والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر رياء وشركا، وهذا لا يقوله أحد، لأن الرياء والشرك أن يقصد بإظهار عمله ما لا قربة به إلى الله من نيل أغراض نفسه الدنية، وهو قد أعان على القرب إلى الله، وأرشد عباده إليه. ولو كان هذا شركا لكان الأذان وتعليم القرآن شركين، وقد جاء في الحديث الصحيح: أنَّ رجلا صلى منفردا فقال عليه السلام: «من يتجر على هذا»؟ وروي: «من يتصدق على

---

(١) سورة البقرة ١٩٨/.
(٢) تفسير القرطبي ٥٨/٧.
(٣) قواعد الأحكام ١٥١/١.

هذا؟[1]. فقام رجل فصلى وراءه ليفيده فضيلة الاقتداء، ولم يجعله عليه السلام رياء ولا شركا لما فيه من إفادة الجماعة القربة الى الله تعالى»[2].

وبين رحمه الله استحباب الانتظار: «وإذا أحس الإمام بداخل وهو راكع فالمستحب أن ينتظره لينيله فضيلة إدراك الركوع، ولا يكون ذلك شركا ولا رياء، لأنَّه عليه السلام جعل مثله صدقة واتجارا، وأمر به في جميع الصلوات، فكيف يكون رياء وشركا، وهذا شأنه في الشريعة! ولا وجه لكراهية ذلك، ومن أبطل الصلاة به فقد أبعد، فليت شعري ماذا يقول في الانتظار المشروع في صلاة الخوف، هل كان شركا ورياءً أو عملا صالحا لله تعالى؟!»[3].

ومما يزيد الأمر وضوحا أنَّ الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ كان يقصّر الصلاة إذا سمع بكاء صبي مع عزمه في أولها على التطويل، ففي الحديث المتفق عليه أن الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ قال: «إنّي لأدخل في الصلاة، وأنا أريدُ أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، مما أعلم من شدة وَجْد أمه لبكائه»[4].

ومالك بن الحويرث[5] كان يصلي بالنّاس ما يريد بصلاته إلّا أن يعلِّم الناس[6].

وعقد المجد ابن تيمية[7] في كتابه المنتقى بابا قال فيه: «باب إطالة الإمام الركعة الأولى، وانتظار من أحس به داخلا، ليدرك الركعة».

---

(١) قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٣٠/٢): رواه الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي.

(٢) قواعد الأحكام (١٥١/١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) قال محقق صحيح الجامع (٢٢٧٤/٢): «رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه».

(٥) هو مالك بن الحويرث بن حشيش بن عوف أبو سليمان الليثي، صحابي نزل البصرة، وتوفي بها سنة (٧٤هـ)، راجع: تهذيب التهذيب ١٥/١٠، (خلاصة تذهيب الكمال ٤/٣).

(٦) صحيح البخاري: انظر فتح الباري (١٦٣/٢).

(٧) هو عبد السلام بن عبد الله بن الخضر جد شيخ الإسلام ابن تيمية فقيه حنبلي أصولي محدث، ولد بحران (٥٩٠هـ)، له: (المحرر في الفقه)، و(منتهى الغاية)، توفي سنة ٦٥٢هـ. راجع (معجم المؤلفين ٢٢٧/٥).

وذكر فيه حديث أبي سعيد: «لقد كانت الصلاة تقام، فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضي حاجته، ثم يتوضأ، ثم يأتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الركعة الأولى مما يطولها»[1].

وذكر حديث عبد الله بن أبي أوفى[2]: «أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم في الركعة الأولى من الصلاة حتى لا يسمع وقع الأقدام»[3]. أفيجوز لعلامة مفسِّر كالقرطبي -غفر الله له- بعد ذلك أن يقول: «إذا أحسّ برجل داخل في الركوع وهو إمام لم ينتظره، لأنّه يخرج ركوعه بانتظاره عن كونه خالصا لله تعالى؟!»[3]

الغنيمة في الحرب والتجارة في الحج تنقصان الأجر

ونحن مع قولنا بصحة حج من قصد التجارة في الحجِّ والغنيمة في الحرب إلا أننا نوافق من قال بأنَّ أجر هؤلاء أقلّ من أجر غيرهم ممن لم يشتغل بشيء من ذلك.

وهذا القول جاءت النصوص الصحيحة الصريحة التي لا تحتمل التأويل به، ففي الحديث: «ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم»[5].

وفي رواية: «ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجرهم، وما من غازية أو سريَّة تخفق أو تصاب إلّا تمَّ أجورهم»[6].

فهؤلاء بنصّ الحديث خارجون بنية خالصة، فقد صرح بأنهم غازون في سبيل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (انظره بشرح النووي (١٧٣/٤).

(٢) هو عبد الله بن أبي أوفى: علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي، شهد بيعة الرضوان، وتوفي سنة (٨٦هـ)، بالكوفة، وهو آخر من توفي بها من الصحابة: راجع (تهذيب التهذيب ١٥١/٥ (خلاصة تذهيب الكمال ٤١/٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٩٥/١).

(٤) تفسير القرطبي (١٨٠/٥).

(٥) صحيح مسلم (انظر مسلم بشرح النووي ٥٧/١٣).

(٦) المصدر السابق.

الله، وأخبر أنَّ الذين نالوا شيئا من الغنيمة ينقص أجرهم وثوابهم، ولا يبطل مطلقا، ذلك أن ما نالوه من غنيمة يعد ثوابا دنيويا عاجلا، وقد قال أحد الصحابة: «فمنًّا من مات ولم يأكل من أجره شيئاً، ومنا من اينعت له ثمرته، فهو يهدبها».

ولا تعارض بين ما دلَّ عليه حديث مسلم من نقصان أجر الذين غنموا وحديث البخاري ومسلم: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاَّ جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن، أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»[1].

أقول لا تعارض بينهما، لأنَّ هذا الحديث دلَّ على أحد أمرين لمن رجع من الغزو سالما ولم يقتل: الأجر، أو الغنيمة، وحديث مسلم السابق ذكر حالا ثالثة، وهي:

الغنيمة والأجر الناقص.

ولا نحتاج إلى تأويل ذلك لأنّ أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ لا يضرب بعضها ببعض، بل يصدّق بعضها بعضا.

وقد فهم كثير من العلماء فهمنا هذا، فهذا الحافظ ابن رجب يقول: «ان خالط نيّة الجهاد مثلا نيّة، غير الرياء، مثل أخذ الأجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية»[2].

وعلى ذلك تحمل النصوص الدالة على بطلان أجر من قصد شيئا من الغنيمة، على أنَّ هؤلاء لم يقصدوا الله بجهادهم، ولم يطلبوا ثوابه وإنَّما تمحض قصدهم لطلب الدنيا، وذلك كالحديث الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالا فله ما نوى»[3].

---

(١) انظر العدّة (٥/٥٠٥)، ، وفتح الباري (٨/٦).

(٢) الدين الخالص ٢٨٣/٢.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه كذا في الترغيب والترهيب (٢٩٩/٢)، وانظر مجمع الفوائد وتخريجه (١٨/٢).

وقوله: «ولم ينو» فيه دلالة واضحة على أنَّ هذا هو قصده، ومطلبه، وقد فهم هذا الصحابيّ الجليل عبد الله بن عمر حيث يقول: «إذا أجمع أحدكم الغزو، فعوضه الله رزقاً، فلا بأس بذلك؛ وأما من أعطي درهما غزا، وان لم يعط لم يغز، فلا خير في ذلك»[1].

ومن ذلك الأرزاق التي يأخذها المجاهدون من بيت مال المسلمين لاتبطل أجر الجهاد، فهي حقٌّ للمقاتلين؛ وقد تكلم ابن تيمية في هذا الموضوع بكلام نفيس فقال: «الجند ليسوا كالاجراء، وإنّما هم جند الله، يقاتلون في سبيل الله عباده، ويأخذون هذه الأرزاق من بيت المال، ليستعينوا بها على الجهاد، وما يأخذونه ليس ملكا للسلطان، وإنّما هو مال الله يقسمه ولي الأمر بين المستحقين، فمن جعلهم كالأجراء جعل جهادهم لغير الله.

وقد جاء في الحديث: «مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون ما يعطون، مثل أم موسى ترضع ابنها وتأخذ أجرها»[2].

وابن تيمية في هذا يفرق: «بين من يكون الدِّين مقصوده والدنيا وسيلة، وبين من تكون الدنيا مقصوده والدين وسيلة، والأشبه أنَّ هذا ليس له في الآخرة من خلاق كما دلت عليه نصوص ليس هذا موضعها»[3].

الرياء بأوصاف العبادة

تحدثنا عن الذي يؤدي العبادة مريدا بها الناس، أو مريدا بها الله والناس، وخلصنا إلى القول ببطلان هذه العبادة، وأن صاحبها آثم معاقب.

فإن كان الرياء لا في أصل العبادة، بل في وصفها كالذي يدخل في الصلاة يريد أن يقصر القراءة فيها والركوع والسجود فيطلع عليه الناس، فيطيل ذلك كلّه

---

(١) الدين الخالص ٢٨٣/٢.
(٢) مجموع الفتاوى ١٩/٢٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/٢٦.

لرؤية النّاس له، ونظرهم، فهذا أمر اختلف فيه العلماء من السلف الصالح، وقد حكى هذا الخلاف الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري [1].

وممن قال بذلك السمرقندي، فهو يرى أن ما فعله من أجل ربّ الناس مقبول، وما فعله من أجل الناس مردود، وسئل العز بن عبد السلام عمن صلى وطول صلاته من أجل الناس، فقال: أرجو ألا يحبط عمله[2].

ونقل ابن نجيم عن بعض الأحناف أنّه يرى: أنَّ من افتتح الصلاة خالصا لله تعالى، ثم دخل في قلبه الرياء، فهو على ما افتتح[3].

وممن قرر هذه المسألة على هذا النحو ابن القيم[4].

إلا أنه ينبغي ان يكون واضحا أن ثواب هذا العامل على هذا النحو غير تام، بل فيه نقصان بسبب ريائه، ولا يبعد أن يكون على خطر عظيم[5].

خفاء الريـــاء وتلونه

لقد كان المحاسبي ـرحمه اللهـ بعيد النظر عندما قرر[6] أنَّ النفس الإنسانية تطلب لذتها دائما، وان شهوة النفس خفية كامنة كمون النار في العود، فإذا منع

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٤٦٧.

(٢) شرح الأربعين النووية ص١٠.

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص٣٩.

(٤) إعلام الموقعين ١٦٧/٢.

(٥) أما عكس هذه المسألة وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلب نيته، ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلاّ بصحة أولها وجبت الإعادة كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله، ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف، (اعلام الموقعين ١٦٧/٢)، هذا ما قرره ابن القيم، إلاّ أن بعض العلماء يرى أنَّ الصلاة لا تنعقد أصلا، وآخرون يزون في مثل الصلاة أنه يلغى كل شيء صلاّه إلا التحريم، وآخرون قالوا: يصح لأنَّ النظر إلى الخواتيم كما لو ابتدأنا بالاخلاص وصحبه الرياء من بعده، قال الغزالي: والقولان الأخيران خارجان عن قياس الفقه (انظر سبل السلام ١٨٦/٤).

(٦) الرعاية ص١٢١.

المسلم نفسه شهوتها بإلزامها بالعبادة والطاعة حاولت أن تجد لذتها بسبيل آخر وهو التزين بالطاعة لتنال حمد الناس.

ولشدة ميل النفس إلى حمد النّاس وثنائهم فإنَّ قصد الرياء يتلون في قلب الإنسان، حتى يكاد يتوهَّم أنَّه مخلص، وهو في الحقيقة يرائي في عمله، وقد عدَّد الغزالي ـرحمه اللهـ درجات الرياء من حيث الخفاء والجلاء، ورتبها ترتيبا تصاعديا[1].

وأول هذه المراتب وأجلاها أن يحسّن العبد من صلاته وعمله الصالح لما يرى من نظر الناس اليه، حتى ينظروا إليه بعين الوقار، ولا يزدرونه، فتخشع جوارحه لذلك، وتسكن أطرافه، وهذا هو الرياء الظاهر، وهو لا يخفى على المبتدئين.

والدرجة الثانية: أن يكون العبد قد علم الرياء الظاهر، فيأتيه الشيطان من زاوية أخرى يخدعه، كأن يدعوه إلى إحسان الصلاة، وإطالتها، لأنه مقتدى به متبوع، ولذا ينبغي أن يحسن صلاته كي ينال أجر الذين ينتفعون ويقتدون به، وهذا في بعض الأحيان خدعة كي تنال النفس لذتها وتصل إلى مطلوبها، وما هذا التعليل إلا إمرار للباطل في صورة الحق كيلا يرفضه الإنسان.

الدرجة الثالثة: إذا تنبه المسلم إلى أن هذا الذي ذكر في الدرجة الثانية رياء، فإنَّ الشيطان قد يدعوه إلى الخشوع في السر وإطالة الصلاة، حتى لا تكون عبادته في السر غيرها في العلانية.

والدرجة الرابعة: وهي أخفاها، وهي تحدث ممن خبر المراتب الثلاثة السابقة، فعند ذلك لا يستطيع ان يأتيه الشيطان منها، ولذا فإنَّ الشيطان يدعوه إلى الخشوع في الصلاة ـمثلاـ عندما يكون بين الناس، ويقول له تفكر في عظمة الله، واستح أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه، وعند ذلك يخشع القلب، وإنما كان هذا من الرياء الخفي، لأن هذا العابد لا يخشع مثل هذا الخشوع لو صلى وحده بعيدا

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٨٢/٤.

عن أعين الناس.

ومع أنّنا لا نوافق الغزالي ـرحمه اللهـ في كل ما ذهب إليه هنا إلاّ أنّنا لخصنا قوله كي يتبين لنا مدى خفاء الرياء، وأنّه قد يخفى على الصالحين الذين يحذرون من الرياء، ويسعون الى تجنبه.

ولما كان الرياء خفيا قد لا يدركه الأخيار رأينا أن نبين سبيل الوقاية منه.

مزلق خطر
ترك العمل خوف الرياء

قد يعالج بعض الناس خطأ فيقعون في خطأ مثله أو أشد منه، وتلك مشكلة عانى منها الناس قديما وحديثا.

أمرنا الله بالعبادة مخلصين له الدين، وفي النفس نوازع تدعونا الى الميل عن صراط الإخلاص، فلما رأى الناس هذا اتجهوا اتجاهات مختلفة، فريق رام **مجاهدة الرياء**، حتى يقتلع جذوره، فلا يبقى في نفسه ميل إلى الرياء، ولا خاطر يدعو إليه، وهؤلاء طلبوا عظيما وراموا مستحيلا «فالناس لم يؤمروا أن يخرجوا وساوس إبليس أن تعترض في صدورهم، ولم يؤمروا بأن يغيروا خلقهم وطباعهم، حتى تصير لا تنازع إلى معنى من زينة الدنيا من رياء ولا غيره، حتى تكون طبائعهم الحمد فيها مكروه والذم فيها محبوب»[1]، لم يؤمر العباد بذلك أبدا، فهذا أمر غير مقدور، والله لا يكلّف نفسا إلاّ وسعها، والجهود التي تبذل في غير مكانها جهود ضائعة، لا تعود على صاحبها بفائدة.

ونحن نلاحظ أنّ بعض الأمور التي دعانا الله إليها مكروهة للنفوس ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾[2]، وبعض الأمور التي نهينا عنها محبوبة للنفوس:

---

(١) الرعاية ص٢٠٧.

(٢) سورة البقرة/٢١٦.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[1]، وقد يطلب الإنسان شيئا من هذه الزينة التي حببت إليه من طريق حرام، وفي الحديث: «حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّت النَّار بالشهوات».

فحبُّ المعاصي من الرياء والشهوات لا إثم فيه، وكراهية فعل بعض المأمورات لا إثم فيه، وقد وضح ابن عبد السلام هذه المسألة فقال: «وليس حب الرياء ولا غيره من جميع المعاصي معصية، فإن أطلق عليه اسم الرياء كان ذلك مجازا من تسمية السبب باسم المسبب، وكل شيء حرمه الله تعالى فلا يأثم مشتهيه بشهوته وإنّما بعزمه عليه وإرادته، ثم بملابسته، وكل ما تكرهه الطباع، وتنفر منه القلوب والأسماع من الخيور والشرور، فلا إثم على كراهيته، ولا النفور منه، وإنَّما الإثم على فعله، إن كان قبيحا، أو تركه إن كان حسنا، فشهوة الرياء والشكر وقهر الأقران وإضرار الأعداء لا إثم فيها، لخروجها عن قدرة المكلف، ولتعذر الانفكاك والانفصال عنها، ومن استعمل شيئا من المحبوبات في غير بابه فقد أخطأ وزل»[2].

الفريق الثاني: عمل عكس ما عمله هؤلاء، فعندما يدعى إلى فعل خير أو يسأل حاجة أو تدعوه النفس إلى عمل خير يعرض في نفسه عارض الرياء، فيخشى من هذا الخاطر أن يكون، فيعرض عن العمل خوف الرياء، وهذا هرب من شرٍّ ووقع فيما هو أشدُّ منه أو مثله، وقد تنبه العلماء الأعلام إلى هذا المزلق الخطر فحذروا منه.

يقول القاضي عياض:[3] «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس

---

(١) سورة آل عمران/ ١٤.

(٢) قواعد الأحكام ١٤٨/١.

(٣) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان عالما بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولد في (سبته) عام (٤٧٦هـ)، وولي قضاءها، وتوفي بمراكش عام (٥٤٤هـ)، من تصانيفه (شرح صحيح مسلم)، و(الشفا بحقوق المصطفى).

راجع: (تذكرة الحفاظ ١٣٠٤/٤)، (البداية والنهاية ٢٢٥/١٢)، (طبقات الحفاظ ص٤٦٨).

شرك»[1]، يقول النووي معلّقا على كلام القاضي: «ومعنى كلامه رحمه الله تعالى: أن من عزم على عبادة، وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مراء، لأنّه ترك العمل لأجل الناس، أما لو تركها ليصليها في الخلوة فهذا مستحب، إلاّ أن تكون فريضة أو زكاة واجبة... فالجهر بالعبادة في ذلك أفضل»[2].

وترك العمل خوفا من الرياء حبالة من حبالات إبليس كما يقول ابن حزم رحمه الله تعالى: «لإبليس في ذم الرياء حبالة، وذلك أنّه ربَّ ممتنع من فعل خير أن يظن به الرياء»، ولذلك ينصح من طرقه مثل هذا ألا يتلفت إليه، وأن يمضي فيه إغاظة للشيطان:«فإذا طرقك منه مثل هذا فامض على فعلك، فهو شديد الألم عليه»[3].

ولو فعل إنسان هذا لأوشك إذا علم الشيطان بذلك أنْ يعترض له عند كل عمل بالخطرات بالرياء فيدع كل طاعة[4].

الفريق الثالث: الذين علموا أنَّ الله ألزمهم بطاعته وعبادته، وأوجب عليهم ان يقاوموا أهواءهم، وأن يخلصوا دينهم لربهم، وهؤلاء نحتاج أن نبين لهم كيف يعالجون هذا المرض في نفوسهم، كي يكون سلاحا في أيديهم يقيهم من مداخل الشيطان.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٩، شرح الأربعين ص١١.

(٢) شرح الأربعين النووية ص١١.

(٣) الأخلاق والسير ص١٦.

(٤) قريب من هذه المسألة ما يقع لبعض الناس الذين ليس لهم عادة في العبادة والتهجد وقراءة القرآن في الليل أو في أطراف النهار، فإذا صحب قوما هذا شأنهم انبعث إلى العبادة، ونشط، وقد يظن بعض الناس أنَّ هذا رياء، وهذا ليس على اطلاقه كما يقول ابن قدامة، بل فيه تفصيل، ذلك أن المؤمن يرغب في عبادة ربه، ولكن تحول دون ذلك عوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة، واندفاع العوائق، فإنّ الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء، وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب اندفعت عنه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه؛ وإنما ينبغي أن يتلفت إلى قصده الباطن ولا يلتفت إلى وساوس الشيطان.

وبين لنا ابن قدامة سبيلا يختبر هذا وأمثاله فيه نفسه، وذلك بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإذا رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وان لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا (مختصر منهاج القاصدين ص٢٣٤).

علاج الرياء

١ـ الاستعانة بالله على الإخلاص والتعوذ به من الرياء ومراقبته:

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[١]، فالسبيل الأقوم هو أن نلجأ إلى الله محتمين به لائذين بجنابه، كي يخلّصنا من الرياء، ويرزقنا الإخلاص، ولنا في إبراهيم خليل الرحمن أسوة إذ توجه إلى ربّه كي يخلصه من الشرك الأكبر: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٢]. وليس عبثا أن شرع الله لنا أن نردّد دائما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣]، فهو المعبود وحده دون سواه، فلا نعبد إلاّ إياه، وهو المستعان وحده في دفع المكروه، وفي الإعانة على الطاعات والمأمورات.

ومن ذلك أن نتعوذ بالله ربّنا من هذا الداء العضال؛ ففي الحديث أنّ الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ خاطب أصحابه قائلاً: «أيُّها النَّاس: اتقوا الشرك؛ فإنّه أخفى من دبيب النمل، قالوا: وكيف نتقيه يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهمَّ إنّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[٤].

وقد أرشدنا الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ إلى طريقة نخلص بها ديننا لربنا، ونصل بها إلى أعلى المراتب وهي الإحسان، فقال: «اعبد الله كأنّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك»[٥]. فالنظر إلى العظماء يوجب مهابتهم واجلالهم، والأدب معهم إلى أقصى الغايات، فما الظنّ بالنظر إلى ربّ الأرض والسموات! فإن كان الإنسان لا يستطيع أن يعبد على الصفة الأولى، فليعبد على أنّ الله يراه وينظر إليه، فالنفوس عندما تستشعر ذلك تستبعد العمل على الغفلة والرياء، وتلتفت إلى الحيّ القيوم.

---

(١) سورة الذاريات / ٥٠.

(٢) سورة إبراهيم / ٣٥.

(٣) سورة الفاتحة / ٥.

(٤) رواه أحمد في مسنده والطبراني عن أبي موسى (كنز العمال ٢٧٥/٣).

(٥) هذا جزء من حديث مشهور تفرد بإخراجه مسلم دون البخاري (انظر جامع العلوم ص٢١).

٢ـ معرفة الرياء والتحرز منه:

تحدثنا عن شدَّة خفاء الرياء، وهذا يقتضي أن يكون العابد على علم بالرياء وأسبابه، ثم يتحرز منه دائما، فالإنسان قد يؤتى من جهله، وقد يؤتى من قلة حذره.

٣ـ النظر في عاقبة الرياء في الدنيا:

ومما ينفي الرياء ويُكَرِّه به أن يعلم المرائي أن رياءه لن يجلب له نفع النَّاس، ولن يدفع عنه ضررهم، بل قد يجلب سخطهم وكراهيتهم ومقتهم كما يجلب كراهية الله وسخطه ومقته، فيخسر الدنيا والآخرة. ولله در الخليفة الراشد عمر بن الخطاب حيث يقول: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله»[١]، وقد علَّق ابن القيم على هذا القول القيم قائلاً: «لما كان المتزين بما ليس فيه ضدّ المخلص فإنَّه يظهر للناس أمرا، وهو في الباطن بخلافه، عامله بنقيض قصده، فإنَّ المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعا وقدرا، ولمَّا كان المخلص يعجّل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبة في قلوب العباد، عجل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته ان شانه الله بين النَّاس، لأنَّه شان باطنه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وحكمته في قضائه»[٢].

وبين أن المرائي قد يشينه عمله عند الناس، لأنَّهم يبحثون عنده عما يظهر أنه فيه، فلا يجدونه، فيعلمون كذبه: «ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدِّين والنسك والعلم وغير ذلك، قد نصب نفسه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها فلا بد أن تطلب منه فإذا لم توجد عنده افتضح فيشينه ذلك من حيث ظنَّ أنّه يزينه»[٣].

---

(١) هذا النص جزء من رسالة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى أبي موسى في القضاء، والحديث رواه الدارقطني والبيهقي وساقه ابن حزم من طريقين وأعلهما بالانقطاع، راجع تلخيص الحبير ١٩٦/٢ «وقد شرح العلامة ابن القيم الحديث في كتابه اعلام الموقعين».

(٢،٣)اعلام الموقعين ١٥٩/٢.

والرياء قد يجعل صاحبه محلّ سخرية الناس وهزئهم، فقد تناقل العلماء في كتبهم حكايات المرائين، وتندروا بها، حكى الأصمعي أنَّ أعرابيا صلى فأطال، وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسن صلاتك! فقال: وأنا مع ذلك صائم[1].

فانظر إلى هذا المسكين الذي أراد العباد بعبادته، كيف ترك صلاته عندما سمع حمد الناس، ليظهر لهم أمرا آخر من عبادته لا يعلمونه، وهو الصوم، فكيف أصبح في نظر هؤلاء؟ لقد سمعه أعرابي آخر حاضر المجلس فأنشد قائلا:

صلى فأعجبني وصام فرابني نح القلوص عن المصلي الصائم

وقال الماوردي معقبا على هذه القصة «فانظر إلى هذا الرياء ما أقبحه! وما أدله على سخف عقل صاحبه»![2].

وذكر العلماء على سبيل التندر أنَّ طاهر بن الحسين[3] قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم، فقال له مبكّتاً: يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة، فأجبت عن مسألتين[4]... ! أينِ حال هذين من حال الأشعث بن قيس[5] عندما خفَّف صلاته مرة، فقال له أهل المسجد: خففت صلاتك جدا؟ فقال: إنَّه لم يخالطها رياء. فتخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه، ورفع التصنع في صلاته[6].

وأين حال هذين من حال عمر بن الخطاب وقد أحسَّ على المنبر بريح خرجت

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٩٥، تفسير القرطبي ٧٧/١١.

(٢) أدب الدنيا والدين ص٩٥.

(٣) هو طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي من كبار الوزراء والقواد، وهو الذي وطد الملك للمأمون بعد قتله للأمين، مات قتيلا عام (٢٠٧هـ).

(٤) أدب الدنيا والدين ص٩٥، تفسير القرطبي (٧١/١١).

(٥) هو الأشعث بن قيس الكندي أمير كنده في الجاهلية والإسلام، كان مقيما في حضرموت، قدم على الرسول ﷺ في جمع من قومه، فأسلم وشهد اليرموك، فأصيبت عينه، ميلاده في (٢٣) قبل الهجرة، ووفاته سنة (٤٠هـ). راجع: (تهذيب التهذيب ٣٥٩/١)، (الكاشف ١٣٥/١)، (خلاصة تذهيب الكمال ١٠٠/١).

(٦) أدب الدنيا والدين ص٩٥، تفسير القرطبي ٧٧/١١.

منه، فقال: يا أيّها الناس، قد ميّلت[1] بين أن أخافكم في الله تعالى، وبين أن أخاف الله فيكم، فكان أن أخاف الله فيكم أحبّ إليّ، ألا وإني قد فسوت، وها أنا نازل أعيد الوضوء، فكان ذلك منه زجرا لنفسه، لتكفّ عن نزاعها إلى مثله[2].

والإنسان قد يرائي الناس بطلب دنياهم فتهرب منه الدنيا، ولا يرجع من ريائه بغير خفي حنين، وقد يعرض عن دنياهم، فتأتيه الدنيا، وتقبل عليه، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولا يأتيه منها إلا ما كتب»[3].

٤ـ النظر في عواقبه الأخروية:

ومما يدفع الرياء أن يتفكر المرائي في إثم الرياء وعاقبته، وقد سبق ذكر الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، مع أنهم كانوا فعالين للخير، إلاّ أنّهم لم يريدوا به ربَّ العباد، بل أرادوا العباد.

وفي يوم القيامة يهتك الله ستر المرائين ويفضحهم جزاء كذبهم، وفي الحديث الصحيح يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[4].

قال ابن حجر: قال الخطابي: «معناه من عمل عملا على غير إخلاص وإنّما يريد أن يراه النّاس ويسمعوه، جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه»[5].

قال ابن حجر: «ورد عدّة أحاديث في التصريح بوقوع ذلك (أي تسميع الله

---

(١) ميلت ومايلت بين الشيئين: رجحت ووازنت.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٩٥.
(٣) رواه الترمذي وأحمد عن أنس، ورواه الدارمي عن أبان، عن زيد بن ثابت (مشكاة المصابيح ٦٨٤/٢).
(٤) رواه البخاري ومسلم (مشكاة المصابيح ٦٨٣/٢).
(٥) فتح الباري ٣٣٦/١١.

بالمسمّع . . .). في يوم القيامة، فهو المعتمد. فعند أحمد: «من قام مقام رياء وسمعة راءى الله به يوم القيامة، وسمّع به»، وللطبراني من حديث معاذ مرفوعا: «ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمّع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة»[1].

فالمسلم الذي يعلم أنَّ هناك يوم حساب وجزاء، ويعلم شدة حاجته إلى صافي الحسنات غدا في يوم القيامة، يغلب على نفسه الحذر من الرياء، كي يقبل عمله في ذلك اليوم، وكيلا ينفضح.

٥ـ إخفاء العبادة وإسرارها:

كان العلماء الأخيار ولا يزالون يحبون إخفاء أعمالهم، حتى لا يخالطها الرياء، ولا يدعون للشيطان مدخلا يشوش عليهم في نياتهم، وقد عدَّ الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ المسرَّ بالصدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاّ ظلّه، وذكر الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ صنفا آخر يستحق ذلك التكريم، وهو ذلك الذي ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

وقد نصّ الله نصّا صريحا على أفضلية صدقة السر على صدقة العلانية في قوله: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾[2].

وقد خصّ العلماء أفضلية الإخفاء بالنوافل دون الفرائض[3]، واستثنى بعض العلماء أولئك الذين يقتدى ويتأسى بهم، ويكون لأفعالهم تأثير في الناس، فهؤلاء يستحب في حقِّهم الإعلان دون الإسرار بشرط أن يأمنوا على أنفسهم الرياء، ولا يكون ذلك إلاّ لقوَّة إيمانهم وصدق يقينهم.

---

(١) فتح الباري ٣٣٧/١١.
(٢) سورة البقرة / ٢٧١.
(٣) تفسير القرطبي ٣٣٢/٣.

ولم أر من فصَّل القول في هذه المسألة وجلاها كالعز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، فقد عقد فصلا في كتابه قواعد الأحكام في (تفاوت فضل الإسرار والإعلان بالطاعات)[1]، قال فيه: «إن قيل: هل الإخفاء أفضل من الإعلان لما فيه من اجتناب الرياء أم لا؟ فالجواب: أنَّ الطاعات ثلاثة أضرب:

أحدها: ما شرع مجهورا كالأذان والإقامة والتكبير والجهر بالقراءة في الصلاة والخطب الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الجمعة والجماعات والأعياد والجهاد وعيادة المرضى وتشييع الأموات، فهذا لا يمكن إخفاؤه، فإن خاف فاعله الرياء جاهد نفسه في دفعه إلى أن تحضره نية الإخلاص، فيأتي به مخلصا كما شرع، فيحصل على أجر ذلك الفعل، وعلى أجر المجاهد، لما فيه من المصلحة المتعدية.

الثاني: ما يكون إسراره خير من إعلانه كإسرار القراءة في الصلاة، وإسرار أذكارها، فهذا إسراره خير من إعلانه.

الثالث: ما يخفى تارة ويظهر أخرى كالصدقات، فإن خاف على نفسه الرياء أو عرف ذلك من عادته كان الإخفاء أفضل من الابداء، لقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾[2].

ومن أمن الرياء فله حالان:

أحدهما: ألا يكون ممن يقتدى به، فإخفاؤها أفضل إذ لا يأمن الرياء عند الاظهار.

والثاني: أن يكون ممن يقتدى به، فالإبداء أولى لما فيه من سدِّ خلة الفقراء مع مصلحة الاقتداء، فيكون قد نفع الفقراء بصدقته وبتسببه إلى تصدق الأغنياء

---

(١) قواعد الأحكام ١/١٥٢.
(٢) سورة البقرة/ ٢٧١.

عليهم، وقد نفع الأغنياء بتسببه إلى اقتدائهم به في نفع الفقراء»[1].

وقد نقل عن السلف الصالح في إخفاء الأعمال التي يستحب أن تخفى أمور تدعو إلى الإعجاب، وتضع أصحابها في مستويات كريمة، تجعلهم أسوة يحتذى ويقتدى بهم في هذا:

ذكر عن ابن سيرين[2] أنه كان يضحك بالنَّهار، ويبكي بالليل، وكان في ذيل أيوب السختياني[3] بعض الطول، وذلك لأنَّ الشهرة في عصره كانت بتقصير الثوب، وكان ابن أدهم[4] إذا مرض يرى عنده ما يأكله الأصحاء[5].

إلّا أنَّه لا ينبغي أن يبالغ المسلم في اخفاء العمل بحيث يزري على نفسه في ذلك، فبعض النّاس يفعلون أمورا يلامون عليها، لكيلا تظهر أعمالهم، ومما يروي وهب بن منبه[6] في هذا عن رجل من الأمم المتقدمة قال: كان رجل من أفضل أهل زمانه، وكان يزار، فيعظَّم، فاجتمعوا إليه ذات يوم، فقال: إنّا قد خرجنا من الدنيا، وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان، وقد خفت أن يكون قد

---

(١) بقيت قضية لم يتعرض لها العز رحمه الله تعالى، وهي كتمان الذنوب واخفاؤ ها: فقد يظن بعض الناس أنَّ ذلك من الرياء، وهذا غير صحيح، فإن الصادق الذي لا يرائي إذا وقعت منه المعصية كان له سترها، لأنَّ الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها. وقد ورد عن الرسول ﷺ أنَّه قال: «من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل». (انظر مختصر منهاج القاصدين ص٢٣٣).

(٢) هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء، من رواة الحديث استقر بالبصرة، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، وله فيها كتاب، ولد (٣٣هـ)، وتوفي (١١٠هـ).

راجع: (تهذيب التهذيب ٢١٤/٩)، (معجم المؤلفين ٥٩/١٠).

(٣) هو أيوب بن أبي تميمة السختياني البصري، سيد فقهاء عصره، تابعي من النساك، ولد سنة (٦٦هـ)، وتوفي سنة (١٣١هـ).

راجع: (تهذيب التهذيب ٢٩٧/١)، الكاشف ١٤٥/١، (خلاصة تذهيب الكمال ١١٠/١).

(٤) هو إبراهيم بن أدهم التميمي البلخي، كان أبوه من أغنياء بلخ، فزهد في مال أبيه، وكان يأكل من كسب يده، واشتهر بالزهد، واشترك في غزو الروم، توفي (١٦١هـ). راجع (الأعلام ٢٤/١).

(٥) تلبيس إبليس ص١٧١.

(٦) هو وهب بن منبه الأنباري الصنعاني مؤرخ كثير الأخبار في الكتب القديمة، له (قصص الأنبياء)، و(قصص الأخبار)، ولد عام (٣٤هـ)، وتوفي في عام (١١٤هـ)،

راجع: (تهذيب التهذيب ١٦٦/١١)، (خلاصة تذهيب الكمال ١٣٨/٣)، (الكاشف ٢٤٥/٣).

دخل علينا في هذه حالة من الطغيان أكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم، أرانا يحبُّ أحدنا أن تقضى له حاجته، وإن اشترى أن يقارب لمكان دينه. فشاع ذلك الكلام، حتى بلغ الملك، فأعجب به، فركب إليه ليسلِّم عليه، ولينظر إليه، فلما رآه الرجل قيل له: هذا الملك قد أتاك، ليسلّم عليك، فقال: وما يصنع؟ قال: للكلام الذي وعظت به، فسأل غلامه هل عندك طعام؟ فقال: شيء من ثمر الشجر مما كنت تفطر به، فأمر به، فأتي على مسح، فوضع بين يديه، فأخذ يأكل منه، وكان يصوم النهار، ولا يفطر، فوقف عليه الملك، فسلَّم عليه، فأجابه إجابة ضعيفة، وأقبل على طعامه، يأكله، فقال الملك: أين الرجل؟ فقيل له هو هذا، قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم، قال: فما عند هذا من خير، فأدبر، فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به»[1].

وفي رواية أخرى عن وهب: «أنّه لما أقبل الملك قدم الرجل طعامه، فجعل يضع البقول في اللقمة الكبيرة ويغمسها في الزيت، فيأكل أكلا عنيفا، فقال له الملك: كيف أنت يا فلان؟ فقال: كالناس. فردَّ الملك عنان دابته، وقال: ما في هذا من خير. فقال: الحمد لله الذي أذهبه عني، وهو لائم لي»[2].

وذكر ابن الجوزي قصة قريبة الشبه بهذه، فقد ذكر أنَّ الوليد بن عبد الملك[3] أراد أن يولي يزيد بن مرثد[4]، فبلغ ذلك يزيد فما كان من يزيد إلّا أن تظاهر بالجنون، فقد لبس فروة، فجعل الجلد على ظهره، والصوف خارجا، وأخذ بيده

(١، ٢) تلبيس إبليس ص١٧١، ١٧٢.

وهذه القصة من الإسرائيليات التي لا تكذب ولا تصدق، وقوله في القصة أن يقارب مأخوذ من قاربه: أي حادثه بكلام حسن، وقارب في الأمر ترك الغلو فيه. والمسح: اللباس أو الكساء من الشعر، والعنان: سير اللجام. والمنهج الصواب- إن شاء الله تعالى- أن من ظهر عمله ولم يقصد إظهاره ومدحه للناس بذلك لا ينبغي له أن يستاء، فتلك بشرى عاجلة فليفرح بفضل الله. عن أبي ذر أن النبيّ- ﷺ- سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن». أخرجه مسلم.

(٣) هو الوليد بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية في الشام، وسع رقعة الدولة الإسلامية، وأجرى إصلاحات هامة في الدولة، توفي في الشام عام (٩٦هـ). راجع: (شذرات الذهب ١١٧/١)، (الأعلام ١١١/١).

(٤) هو يزيد بن مرثد الهمداني أبو عثمان الدمشقي، روى الحديث عن شداد بن أوس، وعنه خالد بن معدان وعطاء. راجع: (تهذيب التهذيب ٣٥٨/١)، (خلاصة تذهيب الكمال ١٧٦/٣).

رغيفا وعرقا[1]، وخرج بلا رداء ولا قلنسوة ولا نعل ولا خف، فجعل يمشي في الأسواق ويأكل، فقيل للوليد: إنَّ يزيد قد اختلط، وأخبر بما فعل فتركه[2].

علامات القائم بالإخلاص

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «وددت أنَّ الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إليّ منه حرف»[3].

وقال: «ما ناظرت أحدا قطّ على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه»[4].

وقال: «ما كلمت أحدا إلا وددت أن يسدَّد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ»[5].

إنَّ هذه الكلمات من هذا الإمام تدلّ على الإخلاص الذي كان يتحلَّى به، وتلك علامة من علامات المخلصين، أنَّهم لا يعملون لأنفسهم، بل مرادهم رضا ربهم، ويودون أن يكفيهم غيرهم تعليم الحقّ وإظهاره، وعندما يحاورون لا يكون غاية همهم أن يغلبوا الخصم، بل مرادهم ظهور الحقّ، ويتمنوا أن يظهر الله الحق على يد الذي يناظرونه.

يقول الغزالي: «وإنما تعرف حقيقة ذلك (الإخلاص) بأمر وهو أن الواعظ المقبول إن كان يعظ لله لا لطلب القبول، وقصده دعوة الخلق إلى الله، فعلامته أنه لو جلس على مكانه واعظ أحسن منه سيرة، وأغزر منه علما، وأطيب منه لهجة، وتضاعف قبول الناس له بالنسبة إلى قبوله، فرح به، وشكر الله على إسقاط هذا الفرض عنه بغيره وبمن هو أقوم به منه»[6].

---

(١) العرق: العظم أخذ عنه معظم اللحم.
(٢) تلبيس إبليس (ص١٧٢)، تهذيب التهذيب (١١/٣٥٨)، خلاصة تذهيب الكمال (٣/١٧٦).
(٣) المجموع ١/٤٦.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ١/٤٧.
(٦) ميزان العمل ص٢٤٢، الأخلاق عند الغزالي ص١٤٩.

ومن علامات المرائي ان ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه، وإن كانت باطلا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وان كانت حقا، وكذلك طالب المال، بخلاف المخلص فالذي يرضيه كلمة الحق له أو عليه، والذي يغضبه كلمة الباطل له أو عليه.

والمخلص لا يبالي لو خرج له كل قدر في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله.

والمخلص إذا عرض له أمران: أحدهما لله، والآخر للدنيا، آثر نصيبه من الله، لأنَّه يعلم أنَّ الدنيا تنفد، والآخرة تبقى، بخلاف المرائي. وقد ذكر وصف المرائين في بعض الكتب السابقة، يقول نوف البكالي[1] وكان ممَّن يقرأ الكتب: إنِّي لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل، قوم يختلون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، وقلوبهم قلوب الذئاب، فعليَّ يجترئون وبي يغترون، حلفت بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيرانا[2].

وينسب إلى عيسى بن مريم أنَّه قال: «يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء، وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدفلى، تعجب من رآها، وتقتل من أكلها»[3].

---

(١) هو نوف بن فضالة البكالي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، كان راويا للقصص، توفي في (٩٥هـ).

راجع: (تهذيب التهذيب ١٠/٤٩٠).

(٢) رواه الترمذي من رواية أبي هريرة مرفوعا إلى الرسول ﷺ، وأوله «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين» (مشكاة المصابيح ٢/٦٨٤- ونسبه ابن كثير وابن قتيبة إلى نوف على أنه من الإسرائيليات، تفسير ابن كثير (١/٤٣٦)، وعيون الأخبار (٢/٢٧٠).

(٣) اقتضاء العلم العمل (ص١٩٤).

ثالثا: التعبد بقصد الاطلاع على العوالم المغيبة[1]

اذا قصد المتعبد بالعبادة تجريد النفس بالعمل، والاطلاع على عالم الأرواح، ورؤية الملائكة وخوارق العادات، ونيل الكرامات والاطلاع على غرائب العلوم والعوالم الروحانية وما أشبه ذلك- فإنّه ممّا ينافي الإخلاص، ويشوب صفاءه، لأنَّ العابد على هذا النحو جعل العبادة وسيلة، لأمور لم تقرها الشريعة الإسلامية، علما بأنَّ هذا النوع من المقاصد لا يقوي قصد التعبد والاخلاص بل يضعفه، لأنَّ العابد بمثل هذا القصد إذا لم يحصل له مراده ضعف عن العمل، ورمى بالعبادة وربما كذب بنتائج الأعمال التي وعد الله بها عباده المخلصين.

وقد روي أنَّ بعض الناس سمع بالقول المأثور: «من أخلص لله أربعين صباحا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[2] فتعرض لذلك لينال الحكمة فلم يفتح له بابها، فبلغت القصة بعض الفضلاء فقال: هذا أخلص للحكمة، ولم يخلص لله. ومما يدل على عدم جواز مثل هذا النوع من المقاصد أمور:

الأول: أنَّ الشارع لم يرد عنه شيء يجيز مثل هذا النوع من المقاصد، بل جاء عنه ما يدلُّ على خلاف ذلك، فإنَّ ما غيب عن الإنسان مما لا يتعلق بالتكليف، لم يطلب بدركه، ولا حضَّ على الوصول إليه. وفي كتب التفسير أنَّ رجلا سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط، ثم ينمو إلى أن يصير بدرا، ثم يصير إلى حالته الأولى؟ فنزلت: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ، قُلْ هِيَ**

(١) راجع في هذه المسألة: الموافقات ٢/٢٩٨- ٣٠٢.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية مرفوعا، وسنده ضعيف، وهو عند أحمد في الزهد مرسل (انظر المقاصد الحسنة ص٣٩٥).

مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا..﴾[1][2] الآية، فجعل إتيان البيوت من ظهورها مثالا شاملا لمقتضى هذا السؤال، لأنَّه تطلب لما لم يؤمر بتطلبه.

الثاني: أنَّ كثيرا من العلماء يعدُّون مثل هذا القصد نوعا من الشرك يفسد الاخلاص، وقد مضى تحقيق هذه المسألة.

الثالث: أنَّ هذا النوع من القصد إن أريد به تثبيت القلوب وزيادة طمأنينة النفوس ـ ففي عالم الشهادة من العجائب والغرائب القريبة المأخذ السهلة الملتمس ما يفنى الدهر وهي باقية لم يبلغ منها في الاطلاع والمعرفة إلاّ كما يأخذ الطائر من البحر إذا نقر منه نقرة. ولو نظر العاقل في أقل الآيات وأذل المخلوقات، وما أودع باريها فيها من الحكم والعجائب، لقضى العجب وانتهى إلى العجز في إدراكه، وقد حثنا الله الى النظر والتفكر في مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيءٍ﴾[3]، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ..﴾[4]، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[5]. ومعلوم أنه لم يأمرهم بالنظر فيما حجب عنهم، ولم يكن لهم الاطلاع عليه عادة إلا بخارقة، فإنه إحالة على ما يندر التوصل إليه، واذا تأملت الآيات التي ذكر فيها الملائكة وعوالم الغيب لم تجدها مما أحيل على النظر

---

(١) سورة البقرة / ١٨٩.

(٢) قال العوفي عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ﴾ وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة فأنزل الله الآية، وكذا روي عن عطاء، والضحاك وقتادة والسدي والربيع بن أنس. راجع: تفسير ابن كثير (٣٩٨/١).

(٣) سورة الأعراف ١٨٥.

(٤) سورة الغاشية ١٧ـ ٢٠.

(٥) سورة ق ٦ـ٧.

فيه، ولا مأمور بتطلب الاطلاع عليها وعلى ذواتها وحقائقها، فهذه التفرقة كافية في أن ذلك غير مطلوب النظر فيه شرعا، وإذا لم يكن مطلوبا لم يحسن أن يطلب.

الرابع: أنَّ أصل هذا التطلب الخاص فلسفي، فإنَّ الاعتناء بطلب تجريد النفس، والاطلاع على العوالم التي وراء الحس إنَّما نقل عن الحكماء المتقدمين والفلاسفة المتعمقين في فنون البحث من المتألهين منهم ومن غيرهم، ولذلك نجدهم يقررون بطلب هذا المعنى رياضة خاصة، لم تأت بها الشريعة المحمدية من اشتراط التغذي بالنبات دون الحيوان، أو ما يخرج من الحيوان إلى غير ذلك من شروطهم التي لم تنقل في الشريعة، ولا وجد منها في السلف الصالح عين ولا أثر، كما أنَّ ذكر التجريد والعوالم الروحانية، وما يتصل بذلك لم ينقل عن أحد منهم، وكفى بذلك حجة في أنَّه غير مطلوب.

الخامس: أنَّ طلب الإطلاع على ما غيب عنا من الروحانيات وعجائب المغيبات، كطلب الاطلاع على ما غيب عنا من المحسوسات النائية، كالأمصار البعيدة، والبلاد القاصية، والمغيبات تحت أطباق الثرى، لأن الجميع من مصنوعات الله تعالى، فكما لا يصحُّ أن يقال بجواز التعبد لله بقصد أن يطلع الكويتي على قطر وباكستان وأفغانستان. .وأقصى بلاد الصين، فكذلك لا ينبغي مثله في الاطلاع على ما ليس من قبيل المحسوسات.

السادس: لو فرض كون هذا سائغا فهو محفوف بعوارض كثيرة وقواطع معترضة، تحول بين الإنسان ومقصوده، وإنَّما هي ابتلاءات يبتلي الله بها عباده، لينظر كيف يعملون، فإذا وازن الإنسان بين مصلحة الحصول على هذه الأشياء وبين مفسدة ما يعترض من صاحبها، كانت جهة العوارض أرجح، فيصير طلبها مرجوحا.

ونحن اليوم نعلم مدى رحمة الله بنا إذ لم يعط آذاننا القدرة على استماع كل ما يعجُّ به الكون من أصوات، وإلاَّ فلو كانت آذاننا قادرة على استماع ما يستقبله

المذياع فإن الإنسان لا بدَّ أن ينهار في ساعات قلائل، لأنَّه لا يستطيع أن يصبر على كلِّ هذا الضجيج والعجيج .

ولو أعطيت أبصارنا القدرة على رؤية الجن والملائكة، فهل يطيب لنا عيش؟ لقد رأى الرسول -صلى الله عليه وسلم- جبريل فرجف فؤاده، وهو الشجاع القوي، الثابت القلب، وجاء لزوجه مسرعا، يقول: (دثروني دثروني)، وقد أخبر الله سبحانه أنه كتب ألا يرى البشر الملائكة إلاَّ عند حلول الساعة أو حلول العذاب: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَبُشْرَى يَومَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ، وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾[1].

ومن رحمة الله بنا أن حجب عنَّا أموراً كثيرة لا نطيق لها رؤية ولا سماعاً، ولذلك فإنَّ طلبنالها من الخطأ البيِّن الواضح.

اعتراضات

يعترض على ما أوردناه باعتراضات منها:

١- أنَّ هذا من طلب الولاية، وقد جاء في كتاب الله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2]، فكون العبد يريد أن يكون وليّاً لله تعالى من خواص عباده الصالحين الذين اصطفاهم واختارهم؛ لا حرج فيه.

٢- أن هذا نوع من المعرفة والعلم، والعلم والمعرفة مطلوب، قال تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3]، وقد طلب مثال هذا إبراهيم عليه السلام من الله عز وجل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى..﴾[4].

٣- ورد عن بعض السلف مثل هذا، فقد سئل بعضهم عن دواء الحفظ، فقال:

---

(١) سورة الفرقان ٢٢.
(٢) سورة الفرقان ٧٤.
(٣) سورة طه ١١٤.
(٤) سورة البقرة ٢٦٠.

ترك المعاصي. ومن مشهور القواعد أن الطاعة تعين على الطاعة، وأن الخير لا يأتي إلّا بالخير، كما أنَّ الشرّ لا يأتي إلّا بالشرّ، ولا ريب أنّه يباح للإنسان أن يفعل الخير ليتوصل به إلى الخير، والموضوع الذي نبحثه هنا من هذا الباب.

فالجواب عن هذه من وجوه:

الأول: أنَّ طلب الولاية الصالحة بيّن الله طريقها، وإنما تكون بالإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[1]. وفي الحديث القدسي: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)، ثم بين طريق نيل الولاية: (وما تقرب إليَّ عبدي بأحبَّ إليَّ ممَّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتّى أحبَّه)[2].

الثاني: أن العلم المطلوب هو ما كان وسيلة إلى العمل، وكلّ ما كان كذلك فقد أخبرنا الله به، وعلّمنا إياه، فالعلم الذي نحتاج إليه مسطر في كتاب الله، وفي نصوص أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وطلبه يكون من هذين المصدرين، أمّا طلب هذه الأمور التي هي موضوع البحث فليس من العلم الذي نحتاج إليه في أعمالنا.

الثالث: أن طلب إبراهيم عليه السلام ليس من باب التوصل بالعبادة إلى نيل هذه الأمور، بل هو من باب الدعاء، وباب الدعاء مفتوح، إلّا أنّ طلب مثل هذه الأمور بالدعاء غير مرغوب فيه، ولم يكن من هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

الرابع: ليس الموضوع الذي نحن فيه من نوع طلب الخير للخير، فإنَّ قاصد الاطلاع على العوالم الروحية قاصد لطلب حظ شهواني بالطاعة التي شرعت

---

(١) سورة يونس ٦٢، ٦٣.

(٢) الحديث تفرد البخاري بإخراجه في صحيحه دون بقية أصحاب الكتب، والحديث من غرائب الصحيح. (جامع العلوم والحكم ص٣٣٧).

للتقرب بها إلى الله تعالى.

أمّا الخير الموصل إلى الخير فهو كالصلاة والصبر إذا قصد بهما الاستعانة على الطاعة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[1]، وترك الشر فيه معونة على الطاعة، فإنَّ العبد يحرم الخير بالذنب يصيبه، ومن ذلك حرمانه نور العلم والهداية بما يأتيه من المعاصي، فإذا ترك ذلك كان عونا على تحصيل العلم وفهمه وحفظه.

الخامس: نحن لا ننكر أنَّ الله قد يتفضل على بعض عباده بشيء من الكرامة وإطلاعه على بعض ما يخفي على عامة الناس، ويكون ذلك على جهة التكريم، أو لأجل مصلحة ظاهرة من دفع العدو، أو إعانة على خير. والذي نعرفه من هذا أنّه يحصل من غير طلب، أو من غير تطلع إليه، كما حدث لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما رأى عدوا يريد ضرب المسلمين من خلفهم، فصاح من على منبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- يا سارية الجبل، فأسمع المسلمين في في بلاد فارس.

وقد يحدث في حال الاضطرار الشديد، كأن يكون العبد خائفا أو جائعا، فييسر الله له الطعام والشراب من حيث لا يحتسب، وقد يعطي الله ذلك عبدا لحكمة يعلمها كما حدث مع مريم ابنة عمران.

وإنما الذي ننكره أن يعبد المسلم بهذا القصد وبهذه النية.

---

(١) سورة البقرة ٤٥.

رابعا: الهروب من العبادة

القصد من العبادة هو الخضوع لله وحده بإخلاص التوجه إليه والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له، والعبادات حق خالص لله دون سواه، والواجبات المفروضة من العبادات ليس للمكلف خيار في اسقاطها عن نفسه.

وبعض الناس يتوجه قصده ونيته إلى الهروب من العبادة بنوع من أنواع الخداع والتحايل، بحيث يكون عمله في ظاهر الأمر مشروعا لا مؤاخذة عليه، وهو يقصد في باطنه التهرب من العبادة وإسقاطها تكاسلا عن الفعل، وضناً بالجهد والمال، وطلبا للراحة، واتباعا للهوى.

وقد ضرب العلماء أمثلة كثيرة لهذا النوع، ومن أمثلته أن يدخل وقت الصلاة عليه في الحضر، فيشرب الخمر، أو يشرب دواء يفقده عقله مدة من الزمان، أو يرمي نفسه من شاهق، أو يحدث سفرا، كل ذلك ليسقط الصلاة عنه كليًّا أو جزئيًّا بالصلاة من قعود، أو بالقصر في السفر.

ومثلوا له بالذي يظلُّه شهر رمضان فيحدث سفرا ليأكل ولا يصوم أو يريد أن يجامع زوجه في رمضان فيأكل أولا، ثم يجامع كي يسقط الكفارة.

ويدخل في هذا الباب من قصد الفرار من وجوب الزكاة بهبة المال أو إتلافه، أو جمع متفرقه، أو تفريق مجتمعه، أو بيع المال قبل الحول.

وكل هذا من المقاصد الخبيثة، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ـ أن العبادات الواجبة حق لله تعالى، لا يجوز للعبد أن يتسبب في إسقاطها بحال من الأحوال، ومن فعل ذلك فإنّ العبادة تبقى في ذمته.

٢ـ العبادات شرعت للتقرب بها إلى الله تعالى، ولمصالح تعود على العباد في دنياهم وأخراهم، وهذه المصالح بيَّنها الله في كتابه وبينها رسوله ـصلى الله عليه وسلمـ في سنته، واستنبطها العلماء من النصوص، فمن رام مصالح غير معتبرة شرعا فإنَّ قصده مخالف لمقصود الشارع من وضع العبادة.

فالزكاة ـمثلاـ وضعت كي يتقرب العباد بها إلى ربهم، فيحصلون على رضوانه

في الدنيا والآخرة، وشرعت لتزكية النفس، ورفع رذيلة الشحِّ، وفي إخراجها مصلحة للفقير يسد حاجته، وإحياء للنفوس المعرَّضة للتلف، فمن وهب ماله في آخر الحول هروبا من وجوب الزكاة عليه، ثمَّ إذا كان في حول آخر أو قبل ذلك استوهبه، فهذا العمل تقوية لوصف الشحِّ وامداد له، ورفع لمصلحة إرفاق المساكين، فمعلوم أن صورة الهبة ليست هي الهبة التي ندب إليها الشرع، لأنَّ الهبة إرفاق وإحسان للموهوب له، وتوسيع عليه غنيا كان أو فقيرا، وجلب لمودته ومؤالفته، وهذه الهبة على الضد من ذلك، ولو كانت على المشروع من التمليك الحقيقي لكان ذلك موافقا لمصلحة الارفاق والتوسعة، ورفعا لرذيلة الشحّ، فلم يكن هروبا عن أداء الزكاة، فتأمل كيف كان القصد المشروع في العمل لا يهدم قصدا شرعيا، والقصد غير الشرعي هادم للقصد الشرعي.

٣ـ هذا الذي هو موضوع البحث نوع من أنواع التحايل المحرم[1]، وقد ذمّ الله

---

(١) الحيلة فعله من الحول، وهو التصرف من حال إلى حال، وهي من ذوات الواو، وأصلها: (حولة)، فسكنت الواو وانكسر ما قبلها، فقلبت ياء كميزان وميقات وميعاد، قال ابن سيده: الحول، والحيل، والتحيل: كل ذلك الحذق وجودة النظر والقدرة على وجه التصرف، قال: والحول، والحيل، والحيلات، جمع حيلة، ورجل حول، وحولة، وحول، وحوالي، وحولول، وحولّي: شديد الاحتيال (لسان العرب ٧٥٩/١).

فالحيلة: التحول من حال إلى حال، وكلُّ من حاول أمرا يريد فعله أو الخلاص منه، فما يحاوله به: حيلة يتوصل بها إليه.

والحيلة لا تذم مطلقا، ولا تمدح مطلقا، ولفظها لا يشعر بمدح ولا ذم، وإن غلب في العرف إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية إلى حصول الغرض بحيث لا يتفطن له، إلا بنوع من الذكاء والفطنة.

والحيل ثلاثة أنواع:

الأول: ـ وهو الذي ينطبق على موضوع البحث ـ محرم: وهو الذي يتوصل به إلى إسقاط الواجبات وتحليل المحرمات وقلب المظلوم ظالما، والظالم مظلوما، والحق باطلا، والباطل حقا، وهذا النوع قد اتفق السلف على ذمه وذم أهله.

الثاني: ما يكون قربة وطاعة، وهو الذي يتوصل به إلى فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من الظالم، وهذا النوع محمود مثاب فاعله.

الثالث: مباح جائز لا حرج على فاعله، ولا على تاركه، ويرجح فعله على تركه، أو العكس تبعا للمصلحة.

وقد عرّف الشاطبي النوع الأول، فقال: «التحيل بوجه سائغ مشروع في الظاهر، أو غير سائغ على إسقاط حكم أو قلبه إلى حكم آخر بحيث لا يسقط أو لا ينقلب إلا مع تلك الواسطة، فتفعل ليتوصل بها إلى ذلك الغرض المقصود مع العلم بكونها لم تشرع له...، فإذا تسبب المكلف في إسقاط ذلك الوجوب عن نفسه، أو في إباحة ذلك المحرم بوجه من وجوه التسبب حتى يصير ذلك الواجب غير واجب في الظاهر، أو المحرَّم حلالا في الظاهر، فهذا التسبب يسمى حيلة وتحايلا (الموافقات ٢٨٠/٢).

أهله، وجاءت النصوص بلعن أمثالهم، وتوعدت من فعل مثل هذا بالعقوبة الدنيوية والأخروية.

فمن ذلك لعن الله اليهود الذين اعتدوا في السبت بالصيد فيه بنوع من أنواع التحايل، وقد ذكرهم الله في أكثر من سورة، ففي سورة النساء قال: ﴿**أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**﴾[1]. وفي سورة البقرة قال: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[2]، وفي سورة الأعراف أطال في شرح قصتهم فقال: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً، وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[3].

ذكر ابن كثير عن ابن عباس وغيره من أئمة التفسير «أنَّ أصحاب تلك المدينة احتالوا على الصيد في يوم السبت، بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص، وحفروا الحفر التي يجرى معها الماء إلى مصانع قد أعدوها، اذا دخلها السمك لا يستطيع ان يخرج منها، فعلوا ذلك في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة في يوم السبت علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها فغضب الله عليهم، ولعنهم، لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر، وهي في الباطن مخالفة محضة...»[4].

---

(١) سورة النساء/٤٧.

(٢) سورة البقرة/٦٥.

(٣) سورة الأعراف/١٦٣ - ١٦٦.

(٤) البداية والنهاية ١٣٣/٢.

وفعل اليهود أمراً قريباً من هذا أيضاً، فقد حرّم الله عليهم الشحوم، فتأوّلوا ذلك بتأولات فاسدة، فزعموا أنَّ المحرّم أكله وأن المحرّم منه الجامد دون المذاب، فأذابوه وباعوه، وأكلوا ثمنه، وقالوا: ما أكلنا الشحم، روى ابن عباس قال: «بلغ عمر -رضي الله عنه- أن فلانا باع خمرا، فقال: قاتل الله فلانا، ألم يعلم أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فجملوها[1] فباعوها[2] ؟! ».

وقد حذر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمته من سلوك الطريق الذي سلكته يهود فقال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[3].

وحدثنا الله في سورة ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[4] بالعذاب الذي أحلَّه بأهل الجنة، الذين أرادوا أن يحتالوا في منع المساكين من أخذ شيء من الثمر، وقد كان أبوهم الصالح يجذّ الثمر ويصرمه في النهار، فيأتي المساكين، فينالون شيئا من الثمار، فاحتالوا على منع المساكين بأن اتفقوا على أن يجذوها في الصباح الباكر، فأرسل الله على جنتهم طائفا، وهم نائمون، فأصبحت كالصريم.

وقد احتجَّ البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه بأحاديث كثيرة على إبطال الحيل منها:

حديث عمر بن الخطاب أنّه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «يا أيّها الناس، إنّما الأعمال بالنية، وإنّما لامرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن هاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها،

---

(١) جملوها : أذابوها.

(٢) متفق عليه (مشكاة المصابيح ٢/٧٥).

(٣) رواه الحافظ ابن بطة قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سلام، حدثنا الحسن بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. قال ابن تيمية (إبطال التحايل ص٤٢): سائر رجال الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى وصفهم. وقال ابن كثير: (التفسير ٣/٢٣٨)، بعد أن ساق إسناد الحديث محمد بن أحمد بن سلام ذكره الخطيب في تاريخه، ووثقة العجلي، وباقي رجاله ثقات مشهورون. ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد، وقال ابن القيم: وهذا إسناد يصحح بمثله الترمذي. إغاثة اللهفان (١/٣٤٨).

(٤) سورة القلم / ١.

فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وهذا الحديث قال فيه القرافي: «فيه حجة لمالك ومن وافقه في إسقاط الحيل، كمن باع ماله قبل الحول فرارا من وجوب الزكاة، وإنما يخادع بالنيات من لا يطلع عليها، وقد نقل النسفي في الكافي عن محمد بن الحسن قال: ليس من أخلاق المسلمين الفرار من أحكام الله بالحيل الموصلة إلى إبطال الحق»[2].

ومن الأحاديث التي أوردها البخاري محتجا بها على إبطال الحيل:حديث أنس أنَّ أبا بكر كتب له فريضة الزكاة التي فرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ولا يجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة»[3].

---

(١) انظر تخريجه في ملحق الكتاب.

(٢) منتهى الآمال.

(٣) فتح الباري ٣٣٠/١٢.

obeikandl.com

الأمر الضابط لمقاصد المكلفين

وقبل أن ننهي الكلام في هذا الموضوع أحب أن يكون عندنا ضابط نستطيع به أن نتعرف على المصالح التي يجوز للمكلف قصدها من وراء الأمور التي يتعبد بها، والمصالح التي لا يجوز له قصدها.

الضابط الذي ارتضاه الشاطبي هو أن ينظر العبد في مقاصد الشارع ويجعل المكلف قصده محكوما بمقاصد الشارع، فالمقاصد الموافقة لقصد الشارع مقاصد صحيحة، والمقاصد المخالفة لمقاصد الشارع من التكاليف غير صحيحة.

يقول الشاطبي في هذا: «الشريعة موضوعة لمصالح العباد على الاطلاق والعموم، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وألا يقصد خلاف ما قصده الشارع»[1]، وعلَّل مذهبه بقوله: «لأنَّ المكلَّف خلق لعبادة الله، وذلك راجع إلى العمل على وفق القصد في وضع الشريعة، هذا محصول العبادة، فينال بذلك الجزاء في الدنيا والآخرة»[2].

واستدلَّ على ما ذهب إليه «بأنَّ الشارع قصد المحافظة على الضروريات، وما رجع إليها من الحاجيات والتحسينات، وهو عين ما كلف به العبد فلا بدَّ أن يكون مطلوبا بالقصد إلى ذلك وإلا لم يكن عاملا على المحافظة لأنَّ الأعمال بالنيات».

وانتهى إلى القول بأنَّ الإنسان خليفة الله في إقامة هذه المصالح بحسب طاقته ومقدار وسعه. والمطلوب منه أن يكون قائما مقام من استخلفه يجري في أحكامه

---

(١) الموافقات ٢/٢٤٣.

(٢) المصدر السابق.

ومقاصده مجاريها[1].

ونرى ان هذا الضابط مع جودته يحسن أن يعدل بحيث يصبح على النحو التالي: يقصد المكلف من عمله بالتكاليف الشرعية المقاصد التي وجه الله عباده إليها وارتضاها لهم، فالله سبحانه وتعالى شرع لعباده الأعمال التي تضمنها دينه، وبين لهم المقاصد التي ينبغي أن يتوجهوا إليها ولعلنا لسنا بمغالين إذا قلنا: إنَّ عناية الإسلام بإيضاح المقاصد أعظم من عنايته بإيضاح الأعمال.

والضابط الذي ارتضيناه سهل ميسور، يستطيع الناس إدراكه بيسر وسهولة، بينما الضابط الذي قرره الشاطبي لا يستطيع تبينه إلّا الراسخون في العلم، والشريعة ـكما يقرر الشاطبي نفسهـ شريعة عامة جاءت للناس كلِّهم، وهي تراعي القدر المشترك بينهم.

ونستطيع أن نقول: إنَّ تعديل هذا الضابط يخلصنا من إشكالات ترد على الضابط الذي وضعه الشاطبي، فالشارع قد يقصد من التكاليف أمورا، ولا يريد من المكلف قصدها، فالشارع قصد من تكليف العباد اختبارهم وابتلاءهم، ولم يكلفنا بأن نقصد ذلك، وقد بحث الشاطبي في أنَّ أمر الشارع بالأسباب لا يعني أمرهم بالمسببات، مع تقريره بأنَّ المسببات مقصودة للشارع من تشريعه الأسباب[2].

ولو نهج هذا النهج ما احتاج إلى تلك الصفحات الطويلة التي أوضح فيها المسألة وبينها.

ولو جارينا الشاطبي فيما ذهب إليه في مباحثه فإننا نرى الأوفق بنا في مبحثنا هذا أن نعدل عن مجاراته، لأن الأوفق بمن ينظر إلى المقاصد من الجانب التعبدي المقرب إلى الله، سواء في العبادات أو في الأمور العادية التي

---

(١) الموافقات ٢٤٣/٢.

(٢) الموافقات ١٢٦/١- ١٢٧.

يقصد التقرب بها- أن يقصد تلك الغاية المنصوبة للعامل بدون نظر إلى المصالح التي تضمنتها العبادة، وهذا أمر ارتضاه الشاطبي وأطال التدليل عليه، فالنظر دائما إلى العمل ابتغاء مرضاة الله وطلبا لثوابه، أقرب إلى الاخلاص من ذلك الذي ينظر إلى المصالح التي تتضمنها التكاليف والعمل على وفقها.

obeikandl.com

الفصل الرابع

تأثير القصد في الأفعال

oberkandl.com

obeikandl.com

تأثيرُ القَصْدِ في الأفعَال

سنحاول أن نبين في هذا الفصل مدى تأثير القصد في المباحات والمحرمات والعبادات.

تأثير النيّة في المباحات

الأمور المباحة[1] ليست بقربات في نفسها، فالوقوف والجلوس والسير والأكل والشرب والنوم... ونحو ذلك، من المباح، وهي ليست من العبادات التي شرعها الله للتقرب بها.

وقد اختلف العلماء في الأمور المباحة، هل يمكن أن تتحول بالنية الصالحة إلى قربة وطاعة يثاب فاعلها؟

ذهب فريق من العلماء إلى أنَّ: «المباح لا يتقرب به إلى الله تعالى، فلا معنى للنية فيه»[2].

ويقول الحطاب في هذا: «الشريعة كلّها إما مطلوب أو مباح، والمباح لا يتقرب به إلى الله تعالى فلا معنى للنية فيه»[3].

واحتج علماء المالكية بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾[4]، على أنَّ الفعل بنيَّة العبادة لا يكون إلّا في المندوبات خاصة دون

---

(١) المباح ما أذن الله في فعله وتركه، غير مقترن بذم فاعله وتاركه ولا مدحه (روضة الناظر/ لابن قدامة ص٢٢١).

(٢) الذخيرة ١/٢٣٩.

(٣) الحطاب على خليل ١/٢٣٢.

(٤) سورة البقرة/ ١٨٩.

المباح، ودون المنهي.. عنه[1].

وردد القرطبي في تفسيره ما ذكره ابن العربي عند تفسير القرطبي للآية السابقة، فقال: «ما لم يشرعه الله قربة ولا ندب إليه لا يصير قربة بأن يتقرب به متقرب»[2]، وقد شعر القرطبي أنَّ بعض الأفعال قد تشكل على بعض الناس هل يجوز التقرب بها أم لا، ولذلك نقل لنا ضابطا عن ابن خويز منداد[3]، لتوضيح هذه المسألة.

قال: «اذا أشكل ما هو برٌّ وقربة بما ليس هو بر وقربة فينظر إلى ذلك العمل: فإن كان له نظير في الفرائض والسنن فيجوز أن يكون قربة، وإن لم يكن فليس ببرٍّ ولا قربة، قال: جاءت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم».

وذكر حديث ابن عباس قال: «بينما رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس، فسأل عنه، فقالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم، ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مروه، فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[4]، فأبطل النبي ـصلى الله عليه وسلمـ ما كان غير قربة مما لا أصل له في الشريعة الإسلامية، وصحّح ما كان قربة مما له نظير في الفرائض والسنن»[5].

ومما يؤيد هذا أنَّ الشافعي ـرحمه الله تعالىـ ذهب إلى عدم وجوب الوفاء بنذر مباح، وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله إن قدم غائبي فعلي صدقة، أو علق بشرط رهبة كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعليّ صدقة».

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٠/١.

(٢) تفسير القرطبي ٣٤٦/٢.

(٣) هو محمد بن أحمد بن خويز العراقي المالكي فقيه أصولي، من آثاره كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه توفي سنة (٣٩٠هـ).
راجع: (معجم المؤلفين).

(٤) قال الحافظ ابن حجر في (تلخيص الحبير ١٧٧/٤): ورواه البخاري بهذا اللفظ، وليس فيه في الشمس، ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان، ورواه مالك في الموطأ عن حميد بن قيس مرسلا.

(٥) تفسير القرطبي ٣٤٦/٢.

وعلَّل أصحاب الشافعي عدم اللزوم: بأنَّ النذر إنَّما يكون بما القصد منه القربة مما هو من جنس القربة، وهذا وإن كان جنس القربة لكنَّه لم يقصد به قربة، وإنما قصد منع نفسه عن فعل أو إقدام على فعل[1].

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أنَّ النية الخيرة تحول المباح الى قربة يؤجر صاحبها.

يقول ابن الحاج[2] في المدخل: «المباح ينتقل بالنية إلى الندب، وإن استطعنا أن ننوي بالفعل نية أداء الواجب كان أفضل من نية الندب، للحديث: «وما تقرب إليَّ عبدي بأحبَّ إليَّ مما افترضته عليه»[3]،[4].

وذكر ابن القيم أنَّ خواص المقربين هم الذين «انقلبت المباحات في حقهم إلى طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة»[5].

التوفيق بين الرأيين:

قد يبدو أنَّ هناك تناقضا بين ما ذهب إليه هذان الفريقان إلاّ أنَّ الناظر المتعمق في البحث يرى أنَّ الذي نفاه الفريق الأول ليس هو الذي أثبته الفريق الثاني.

الفريق الأول ينكر أن تكون المباحات عبادات وقربات في صورتها، وهذا حق لا يجوز أن يخالف فيه أحد، ومن ظَنَّ أنّه يعبد الله بالمشي والوقوف واللباس الأسود أو الأخضر، أو ببناء الدور والعمارات للسكنى فهو مخطىء، لأن هذه ليست عبادات في ذاتها.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٧٨٨/٤، وقال إنَّ مالكا وأبا حنيفة قالا يلزمه الوفاء.

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن الحاج المالكي القاضي نزيل مصر، توفي بالقاهرة (٧٣٧هـ)، له كتاب (المدخل)، و(الأزهار الطيبة النشر). راجع: (الأعلام ٢٤٦/٧).

(٣) الحديث رواه البخاري (فتح الباري ٣٤٠/١١).

(٤) المدخل ٢١/١ - ٢٢.

(٥) مدارج السالكين ١٠٧/١.

ويجب أن نحمل مثل قول الحارث المحاسبي: «النية فيما ليس فيه ثواب لا تحضر، ولا نية في ذلك، ومن أراد الله عز وجل في ذلك فمغرور غالط، كالرجل بنى البنيان الفاخر يريد بذلك- زعم-الله، ويأكل الأطعمة الطيبة ويتكلفها لغير ضعف وجده به ولا قوة على طاعة الله لا يقوى على تلك الطاعة إلاّ بها، فلا يجوز النية في ذلك»[1]، يجب أن نحمله على ذلك.

والذين أرادوا أن يعبدوا الله بأمثال هذه الأمور تعبوا وأتعبوا، لأنَّ استحضار النية في هذا متعسر، وقد ذكر كثير من المؤلفين (في السلوك) أنَّه:«ينبغي للمريد أن تكون له في كلّ شيء نية لله تعالى، حتى في أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلاّ لله، ولا يأكل إلاَّ لله، ولا يشرب إلاّ لله، ولا ينام إلاّ لله. . . .»[2].

وذكروا عن بعض العباد أنَّه كان ينوي عند كل لقمة، ويقول بلسانه: آكل هذه اللقمة لله تعالى[3].

ويذكرون عن آخر أنَّه نادى امرأته فقال: هاتي المدري ليفرق شعره، فقالت له امرأته: أجيء بالمدري والمرآة؟ فسكت، ثم قال: نعم.

فقال له من سمعه: سكت، وتوقفت عن المرآة، ثم قلت: نعم؟ فقال: إنَّي قلت لها: هاتي المدري بنية، فلما قالت: المرآة، لم تكن لي في المرآة نية، فتوقفت، حتى هيّأ الله لي نية، فقلت نعم[4].

وانظر إلى الحالة التي وصل إليها الذين اتجهوا هذا الاتجاه الخاطىء، فقد ذكروا عن أحد الصالحين أنَّه لبس القميص مقلوباً، ولم يعلم بذلك، حتى ارتفع النهار، ونبهه على ذلك بعض الناس، فهمّ أن يخلع ويغير، ثم أمسك، وقال: لبسته بنية لله، فلا أغيره فألبسه بنية الناس[5].

---

(١) الرعاية.
(٢) عوارف المعارف ص ٥٣٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

إنَّ العلماء الأعلام من أصحاب الفريق الأول كان مرادهم أن المباحات لا يقصد التقرب بذواتها كما يتقرب بالصلاة وقراءة القرآن والزكاة.

أما القائلون بأنَّ المباح يتقرب به فمرادهم مخالف لمراد الأولين.

وهم يفهمون ذلك بصورة أو أكثر من الصور التالية:

١ ـ المباح وسيلة للعبادات:

يرى بعضهم أن يقصد المسلم جعل المباح وسيلة للعبادات المشروعة، يقول ابن تيمية: «ينبغي ألاّ يفعل من المباحات إلاّ ما يستعين به على الطاعة، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة»(١).

ويقول ابن الشاط: «إذا قصد بالمباحات التقوي على الطاعات، أو التوصل إليها كانت عبادة؛كالأكل والنوم واكتساب المال...»(٢).

فالمسلم إذا قصد بنومه وأكله وشربه أن يتقوى بها على طاعة الله، كي يتمكن من قيام الليل والجهاد في سبيل الله، فهذا مثاب على هذه الأعمال بهذه النية(٣).

وقد صحَّ عن الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ أنَّه قال لسعد بن أبي وقاص: «إنَّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاّ أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك»(٤).

قال النووي رحمه الله معلقاً على الحديث: «وضع اللقمة في في الزوجة يقع غالباً في حال المداعبة، ولشهوة النفس في ذلك مدخل ظاهر، ومع ذلك إذا وجه القصد في تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله»(٥).

وقال صاحب دليل الفالحين: «وفيه أن الانفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد وجه الله ـتعالىـ به، وفيه أنَّ المباح إذا قصد به وجه الله صار طاعة، ويثاب عليه،

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٦٠/١٠ ـ ٤٦١.

(٢) غمز عيون البصائر ٣٤/١.

(٣) يرى العز بن عبد السلام أن المسيلم يثاب في هذه الحالة على القصد دون الفعل (قواعد الأحكام ١٧٨/١).

(٤) صحيح البخاري (انظر فتح الباري ١٣٦/١، ١٦٤/٣، ٣٦٣/٥).

(٥) فتح الباري (٣٧/١).

إذ وضع اللقمة في فم امرأته إنّما يكون في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع ذلك فقد أخبر الشارع بأنَّ ذلك يؤجر عليه بالقصد الجميل فغير هذه الحالة أولى بحصول الأجر إذا قصد به وجه الله.

ويؤخذ من ذلك: أنَّ الإنسان إذا فعل مباحا من أكل أو شرب وقصد به وجه الله كالاستعانة بذلك على الطاعة وبالنوم على قيام الليل يثاب عليه»[1].

وأوضح من هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة، وما أطعمت نفسك فهو لك صدقة»[2].

ويقول السيوطي: «ومن أحسن ماستدلوا به على أنَّ العبد ينال أجرا بالنيَّة الصالحة في المباحات والعادات قوله صلى الله عليه وسلم: «ولكل امرىء ما نوى» فهذه يثاب فاعلها إذا قصد بها التقرب إلى الله، فإن لم يقصد ذلك فلا ثواب له...»[3].

٢ ـ الأخذ بالمباح على أنه تشريع إلهي:

المسلم الملتزم بالدّين الإسلامي يجري تحت قانون متكامل من التكاليف الشرعية في جميع حركاته وأقواله واعتقاداته، فلا يكون كالبهيمة المسيبة تعمل بهواها، بل يلجم نفسه دائما بلجام الشرع، ويسوسها به، فإذا نظر إلى المباح هذه النظرة بأن يأتيه معتقدا أنَّ الله أباحه، فالذي يأتي زوجته ـ مثلا ـ يقصد أن يعدل عما حرمه الله تعالى إلى ما أباحه، والله يحبّ أن يؤتى ما أباح لعباده وما رخص لهم به، ويبغض التشدد والترهبن بتحريم الطيبات، ومما يشهد لهذا قوله ﷺ:

---

(١) دليل الفالحين ١/ ٧٤.

(٢) رواه أحمد والطبراني عن المقدام بن معد يكرب (صحيح الجامع ٥/ ٥٤١١).

(٣) شرح السيوطي على النسائي ١/ ١٩.

«وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أليس كان يكون عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال له أجر»[1].

٣ ـ المباح بالجزء مطلوب بالكل على جهة الندب أو الوجوب[2]:

قد يكون الأمر مباحا بالجزء ولكنه مطلوب بالكلّ، فالعبد إذا جاز له أن يترك الطعام والشراب، ويجهد نفسه في بعض الأحيان، إلاّ أنّه لا يجوز له أن يتمادى في ذلك حتى يهلك نفسه بسبب ذلك، ولذلك أوجب جماهير العلماء على المضطر أن يأكل من الميتة، وعدّوه مستوجبا للوعيد إذا هو امتنع عن الأكل حتى هلك.

وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه، ومأمور بنفس عقد الزواج إذا احتاج إليه وقدر عليه.

ولو قدر أن امتنع الناس عن الزواج والمتاجرة والصناعة فإنّهم يعدون آثمين، فإذا تصرف المكلف بالمباح في ضوء هذا الفهم فإنّه يكون مثابا مأجورا إن شاء الله تعالى.

استحضار النية عند المباح:

الأفعال والأقوال المباحة كثيرة جدّا، وإذا لم يقصد بها العبد النية الخيّرة، فإنها لن تعود علينا بالنفع الأخروي، فإذا أحسن المكلف القصد والتوجه حين القيام بها فإنَّ هذه الأعمال من المطعم والمشرب والنوم والمتاجرة والصناعة تصبح ثروات عظيمة تنفعنا عندما نقدم على ربِّنا في يوم القيامة.

لذلك حث العلماء ورغبوا في «استحضار النيَّة عند المباحات والعاديات،

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي ذر (صحيح الجامع ٢/حديث رقم ٢٥٨٥).
(٢) راجع الموافقات ٧٨/١، مجموع الفتاوى ٤٦/١٠.

ليثاب عليها ثواب العبادات مع أنَّه لا مشقة علينا في القيام بها، بل هي مألوفة لنفسه مستلذة، وهذا من عظيم سعة رحمة الله، وكبير منته، أن أباح لعباده الطيبات التي يشتهيها، ثم مع ذلك يثيبه عليها بحسن نيته[1].

وقد وضَّح لنا أهل العلم كيف تكون نياتنا في المباح، فقد ذكر الغزالي ما يمكن أن ينوي بالطِّيب، فمن الممكن أن ينوي به اتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في يوم الجمعة، وينوي بذلك أيضا تعظيم المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به رفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى ايذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة، فيعصون الله بسببه[2].

(١) نهاية الأحكام (ص١٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٧٧/٤)، ومن الذين أطالوا في هذه الأمور ابن الحاج في المدخل، ولكنه أغرق في ذلك وغالى، وأخرجه ذلك إلى نوع من التكلف الشديد، استمع إليه وهو يقول: «فتحصل لنا من النيات في الخروج إلى المسجد اثنان وتسعون مع ما يضاف إلى ذلك من نيّة شروط وجوب الصلاة وفرائضها وسننها وذلك سبع وستون» (٥٤/١)، ولو ذهبنا نتتبع تلك النيات التي ذكرها لأدركنا مدى التكلف والتمحل، حتى أنه رغب الخارج إلى المسجد أن يكون معه سكينا كي ينوي أنَّه إذا وجد شاة مصابة قاربت الموت أن يذبحها...

تأثير النيّة في الأفعال المحرّمة

الذين يقصدون التقرب بالحرام ثلاث فرق:

الفرقة الأولى:

عدَّت بعض الذنوب والمعاصي قربات، كالذين يستحبّون النظر في وجوه الحسان والمردان، ويزعمون أنَّ مثل هذا النظر مأمور به شرعا، وأنّه قربة يتقربون بها إلى الله تعالى[1].

وقد جاؤوا بنوعين من الشبه: **الأولى**: نقول صحيحة لا حجَّة لهم فيها كقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيءٍ**﴾[2]، قالوا: هذا يعمّ جميع ما خلق الله، فما الذي أخرج من عمومه الوجه المليح؟ وهو من أحسن ما خلق الله، وموضع الاستدلال به والاعتبار أقوى.

وهؤلاء حمَّلوا هذه الآية معنى غير مراد لله تعالى، فالنظر الذي أمرنا به هو النظر المؤدّي إلى معرفته، والإيمان به، ومحبته، والاستدلال على صدق رسله فيما أخبروا عنه من أسمائه وصفاته وأفعاله وعقابه وثوابه، أما النظر إلى الحسان من النساء والولدان الذي يعلق الناظر بصورة المنظور فهذا منهي عنه، والآية التي احتجّوا بها مخصوصة بمثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم**﴾[3]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «فزنى العينين النظر»[4].

---

(١) روضة المحبين ص١١٢، تلبيس إبليس ص٢٩٧.

(٢) سورة الأعراف/ ١٨٥.

(٣) سورة النور/ ٣٠.

(٤) الحديث جزء من حديث أخرجه البخاري، ولفظه: «كتبت على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، وزنى الأذنين الاستماع، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين الخطا، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»، رواه البخاري تعليقا، ومسلم مسندا بنحو ما ذكر (راجع تفسير ابن كثير ٥/٨٧).

ومِمَّا احتجّوا به أمره ـصلى الله عليه وسلمـ للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، وهذا الاستدلال أوهى من استدلالهم بالآيات السابقة فهذا المأمور به هنا لم يقصد به التفكر والاعتبار، وإنَّما يقصد التعرف على من يريد الزواج منها، كي يعلم مدى رضاه عنها ورغبته فيها، وهذا شيء آخر غير الذي زعموه، لأنَّ هذا ليس من المحرمات.

والشبهة الثانية: نقول كاذبة نسبوها إلى الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ وإلى أئمة الهدى وهم منها براء.

كالحديث الموضوع الذي احتجّوا به في هذا «النظر إلى الوجه المليح عبادة»[1] والحديث الآخر «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»[2].

ونقلوا عن أئمة الهدى أمثال الشافعي ومالك وسفيان بن عيينة وغيرهم نقولا زعموا فيها أنهم أقروا مثل هذا، وهي نقول مكذوبة ملفقة لا تصح عنهم[3].

وقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء أن يغلفوا الأفعال المحرمة بغلاف الصلاح والعبادة، فيزعمون أنَّ حبهم للأمرد والمرأة الأجنبية لله تعالى، لا للفاحشة، ويزعمون أن التعاون على الفاحشة تعاون على الخير والبر فيسعى هؤلاء المفتونون في أن يجلب أحدهم المعشوق لعاشقه، ويعدّ ذلك في حسناته، لأنَّه فرّج كرب العشق عن المعشوق و«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[4][5]!!

---

(١) قال ابن القيم في هذا الحديث (روضة المحبين ص١٢٣): سئل شيخنا عن هذا الحديث فأجاب: «هذا كذب باطل، ومن روى ذلك عن النبي ﷺ، أو ما يشبهه فقد كذب عليه ﷺ، فإن هذا لم يروه أحد من أهل الحديث لا بإسناد صحيح ولا ضعيف»، بل هو من الموضوعات، وهو مخالف لاجماع المسلمين، فإنّه لم يقل أحد أن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبي الأمرد عبادة، ومن زعم ذلك فإنّه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

(٢) أطال الحافظ السخاوي في ذكر مخرجي الحديث وذكر ألفاظه وطرقه، وقال: وطرقه كلّها ضعيفة، وبعضها أشدّ في ذلك من بعض (المقاصد الحسنة ص٨٠).

(٣) ذكر ابن القيم هذه النقول وبين ضعف إسنادها وعدم صحة نسبتها إلى الأئمة في كتابه روضة المحبين ص١١٢-١٣٦.

(٤) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وأخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر بلفظ (ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) (جامع العلوم والحكم ص٣١٨).

(٥) وهؤلاء الذين يدعون هذه الدعاوى قسمان: قسم من أصحاب الجهل، أوقعهم جهلهم في مثل هذا الضلال. وقسم آخر عالم بالتحريم ولكنه منافق مخادع يريد الفاحشة، ولكنه يسترها بستار الدين والصلاح.

ومما يظنه بعض الناس قربة الغناء الذي يسمونه السماع، يقول ابن الجوزي: «وقد ادعى قوم أنَّ هذا السماع قربة إلى الله عز وجل». ونقل عن بعضهم أنَّه يزعم «أنَّ رحمة الله تتنزل عند السماع، ونقل عن ابن عقيل قوله: قد سمعنا من بعض العباد أنَّ الدعاء عند حدوّ الحادي وعند حضور المخدّة[1] مجاب، وذلك أنَّهم يعتقدون أنَّه قربة يتقرَّب بها إلى الله تعالى، قال: وهذا كفر، لأنَّ من اعتقد الحرام أو المكروه قربة كان بهذا الاعتقاد كافرا، قال: والنّاس بين تحريمه وكراهيته»[2].

الفرقــة الثانيــة:

لم تعدَّ الحرام في ذاته قربة، بل جعلت الحرام وسيلة إلى الأمور التي يتقرب بها، وظنّوا أنَّ هذا يشفع لهم في ارتكاب المحذورات، فمن هؤلاء من يطلب المال بالطرق الحرام كالربا والظلم والخيانة والرشوة والتجارة فيما لا يحل كالمتاجرة بالخنزير والخمر وصناعة الأشياء التي تكره، كعمل الآنية من الذهب والفضة لمن يأكل فيها أو يشرب فيها، ويزعم هؤلاء أنَّهم «يريدون بأعمالهم هذه التطوع ويحتجون على ذلك بأنَّهم يعيلون عيالا صغارا، وقرابة مساكين، وبأنَّهم يوجهون ذلك في سبيل الله عز وجل»[3].

يقول الغزالي- رحمه الله- في هذا الموضوع: «المعاصي لا تتغير عن موضعها بالنيّة، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما الأعمال بالنيّات»، فيظنُّ أنَّ المعصية تنقلب طاعة.

ومثّل لهذا بالذي «يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيرا مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدا، أو رباطا بمال حرام، وقصده الخير»[4].

---

(١) المخدة آلة الطرب لأنها توضع على الخدّ.

(٢) تلبيس إبليس ص٢٧٧-٢٧٨، وكلام ابن عقيل بالتكفير يتوجه على من علم الحرمة ثم اعتقد كونها قربة، أما من خالف بنوع من الجهل أو التأويل فأمره مختلف.

(٣) الرعاية ص٩٢ بتصرف يسير.

(٤) إحياء علوم الدين ٣٦٨/٤- ٣٦٩.

وعقب على هذا قائلا: «فهذا كلُّه جهل، والنيّة لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية، بل قصده الخير بالشر- على خلاف مقتضى الشرع- شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

الفرقــة الثالثــة:

هم الذين يظنّون أنَّ: من الحرام ما يصبح قربة في حق طائفة معينة أو فرد معين.

وقد تكلم العز بن عبد السلام عن طائفة من النّاس يرون أنَّ المعصية الصغيرة مباحة للوليّ، ويزعمون أنَّ الله أحلّ له ما لم يحل لغيره، قال: «وأشرّ من هؤلاء من يعتقد أنَّ ذلك الذنب قربة لصدوره عن ذلك الولي»[2].

ونقل ابن الجوزي عن بعض الصوفية قوله: «السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهـاد لحصول مجـاهداتهم، مستحبّ لأصحـابنا لحيـاة قلوبهم»[3].

وهذا خطأ فإنَّ الله حرَّم ما حرم تحريما كليا عاما، ولا يستثنى من هذا إلّا ما استثناه الله لحاجة أو ضرورة، كالمضطر لأكل الميتة، أما الزعم بأنَّ الحرام يحلّ لبعض الناس دون بعض، ويصحّ قربة من بعض آخر فهذا مخالف للأدلة، ولما كان عليه سلف الأمة.

وخلاصة القول: أنَّ الحرام لا يكون قربة بحال من الأحوال.

يقول الحارث المحاسبي: «ولا إخلاص في محرم ولا مكروه، كمن ينظر إلى ما لا يحلّ له النظر إليه، ويزعم أنَّه ينظر إليه ليتفكر في صنع الله تعالى، كالنظر إلى

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٦٨-٣٦٩.
(٢) قواعد الأحكام ١/١٥٠.
(٣) تلبيس إبليس / ٢٧٧.

الأمرد، وهذا لا إخلاص فيه، بل لا قربة البتَّة»[1].

ويقول ابن الحاج: «الأفعال الشرعية ثلاثة: واجب، ومندوب، ومباح. والحرام والمكروه لا يتقرب بهما إلى الله تعالى»[2].

obeikandl.com

(١) شرح الأربعين النووية ص١٢.
(٢) المدخل ١ / ٢١ ـ ٢٢.

التقرب الى الله بالعبادات المبتدعة

العبادة التي يتقرب بها إلى الله- تعالى- لا يمكن أن تعرف إلا بوحي الله المنزل، فنحن نتقرب إلى الله بالأفعال التي يحبها الله- تعالى- ويرضاها، ومحبوبات الله ومرضياته غيب محجوب عنا، ولا نستطيع معرفته إلا إذا أعلمنا بذلك.

من هنا كانت العبادات التي تقربنا إلى ربنا مبينة مفصلة، ولم يترك الله لأحد فيها قولا، ولم يدع فيها نقصا يحتاج إلى إكمال ولو ترك شيء منها بغير إيضاح لكان مدعاة إلى الاختلاف والتنازع، ومن زعم أن في الدين بدعة[1] حسنة فإنه يزعم أنَّ الله لم يكمل دينه، ولم يتم نعمته على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وعلى أمته، والله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2]، فالدين الذي رضي الله أن نتقرب به إليه هو الدّين الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فما لم يكن في عهده -صلى الله عليه وسلم- عبادة وقربة فلن يكون بعد ذلك عبادة ولا قربة.

والذي يزعم أنه يمكن أن يتقرب بعبادة مستحدثة لم يفعلها الرسول -صلى الله

---

(١) أصل مادة (بدع) للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾، أي مبدعهما من غير مثال سابق متقدم. ويقال: ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبق إليها سابق، ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة، وقد عرفها بعض الفقهاء بقوله: «هي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه». فالطريقة: الطريق والسبيل، وهي شاملة لأمور الدين والدنيا. وقوله: في الدين، أخرج البدعة الدنيوية، فإنَّ منها المستحسن والمستقبح. وقوله (مخترعة) أخرج طرق التعبد المشروعة، وقوله (تضاهي الشرعية) لأنّه لو كانت لا تضاهي الشرعية لم تكن بدعة لأنها تصير من باب الأفعال العادية، وقوله: يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى «هو تمام معنى البدعة إذ هو المقصود بتشريعها، وذلك أن المبتدع يريد المبالغة بالتعبد بفعل ما لم يؤمر به، كأنّه لم يكتف بالمأمور».

راجع: الاعتصام للشاطبي (١/٢٩-٣٦)، فقد أطال في التعريف وشرحه.

(٢) سورة المائدة/٣.

عليه وسلم- هو بين أمرين أحلاهما مر:

إما أن يزعم أنَّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- علم هذه العبادة ولكنه لم يخبر بها، وهذا اتهام للرسول -صلى الله عليه وسلم- بالخيانة في التبليغ. وإما أن يزعم أنَّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يعلم أنَّ هذه عبادة وقربة، وأنَّ هذا المسكين علم شيئا لم يعلمه المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وهذا اتهام للرسول -صلى الله عليه وسلم- بالجهالة والضلالة.

ومن المعلوم المقطوع به أنَّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- أعلم الخلق بربه، وأنَّه بلغ ما أنزل إليه من ربّه، وقد شهد له بذلك أصحابه في الجمع الحاشد في حجَّة الوداع، فما دام الأمر كذلك فإنَّه لم يبق إلّا أنَّ العبادات المبتدعة المستحدثة ضلالة تهلك صاحبها وتوبقه، وقد كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يستفتح خطبته بالحمد والثناء على الله، ثم يقول: «أما بعد: فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة»[1].

وفي رواية: «وكل محدثة بدعة، وكلّ بدعة في النار»[2].

وفي حديث آخر «وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»[3].

والعبادات المبتدعة لا تقبل من صاحبها، بل هي مردودة وصاحبها موزور غير مأجور، فقد ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ»[4].

وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد».

---

(١) رواه مسلم عن جابر (مشكاة المصابيح ٥١/١).

(٢) هذه الزيادة عند النسائي، انظر تحقيق المشكاة (٥١/١).

(٣) رواه الترمذي وصححه، وأبو داود وأحمد وابن ماجه، (مشكاة المصابيح ٥٨/١).

(٤) الحديث متفق عليه، (انظر مشكاة المصابيح ٥١/١).

والنصوص في ذم البدع في الكتاب والسنة كثيرة، وقد بالغ علماء السلف في ردّ البدع وذمّ أصحابها، ومما حفظه العلماء وتناقلوه بالتقدير والإجلال قول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز[1]: سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوّة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من عمل بها فهو مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولّى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا»[2].

لقد أدرك العلماء منذ البداية أنَّ الإخلاص ركن العمل المقبول عند الله، ولكنَّهم لم يغفلوا الركن الثاني، وهو أن يكون العمل مشروعا للتعبد به، وقد فسر العلماء قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[3] بهذا، ومن هؤلاء الفضيل بن عياض[4] قال: «هو أخلص العلم وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[5].

فما عدَّه بعض العباد عبادة وقربة مما لم يفعله الرسول- صلى الله عليه وسلم- كتحريم الطيبات من اللحم والفاكهة، ومن ترك الكلام والصمت الدائم فلا يكلّمون أحدا، وتعبّدهم الله بحلق شعر الرأس، واستحداث صلوات وأوراد

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، الخليفة الصالح والملك العادل، ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك ولم تطل خلافته، قيل دُسَّ له السم. ولد بالمدينة عام (٢١هـ)، وتوفي (بدير سمعان)، من أرض المعرة عام (١٠١هـ).

راجع: (خلاصة تذهيب الكمال ٢٧٤/٢)، (شذرات الذهب ١١٩/١)، (طبقات الحفاظ ص٤٦).

(٢) الاعتصام ١٠٣/١.

(٣) سورة الملك/٢.

(٤) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد، ولد بسمرقند، وسكن مكة وتوفي بها (١٨٧هـ).

راجع: (خلاصة تذهيب الكمال ٣٣٨/٢)، (الكاشف ٣٨٦/٢)، (طبقات الحفاظ ص١٠٤).

(٥) إعلام الموقعين (١٦٠/٢).

وطرق معينة في الذكر لم يصح أن الرسول ﷺ فعلها، كل ذلك من الابتداع في دين الله، ولا يشفع لصاحبه انّ نيّته حسنة، ومراده إرضاء الله تعالى، وقد قال ابن مسعود لبعض المبتدعة عندما قالوا: يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلّا الخير، قال: وكم من مريد للخير لم يدركه.

obeikandl.com